شرح

تعليم المتعلم

للإمام العالم العلامة الحبر البحر
الفهامة ذي المقام الجليل

الشيخ إبراهيم بن إسماعيل

على الرسالة المسماة

بتعليم المتعلم طريق التعلم

لسيد زمانه وعلامة أوانه الشيخ

الإمام برهان الإسلام الزرنوجي

دار البصائر

شرح
تعليم المتعلم

شرح
تعليم المتعلم

للإمام العالم العلامة الحبر البحر
الفهامة ذي المقام الجليل

الشيخ إبراهيم بن إسماعيل
على الرسالة المسماة

بتعليم المتعلم طريق التعلم

لسيد زمانه وعلامة أوانه الشيخ
الزرنوجي

الطبعة الأولى
1433هـ / 2012م
الطبعة الثانية
1434هـ / 2013م
الطبعة الثالثة
1435هـ / 2014م
الطبعة الرابعة
1436هـ / 2015م

دار البصائر

الإدارة: ١١٣٩ زهراء مدينة نصر. القاهرة.
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٢٤١١١٤٤١
مركز التوزيع: ٢٢ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر. القاهرة.
هاتف: ٠٠٢٠٢٢٥١٤٩٦٣٣. محمول: ٠١٠٠٢٤٣٦٢٦٣

كل الحقوق محفوظة للناشر

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٢٠١١/١١٠٩٣
الترقيم الدولي
I.S.B.N. 978-977-489-078-9

يحظر الطبع أو النقل أو الترجمة أو التحويل إلى بيانات إليكترونية لأي جزء من هذا الكتاب دون إذن كتابي من الناشر

المؤلف مسئول مسئولية كاملة عن أفكار وأسلوب ولغة هذا الكتاب ولا يعبر هذا الكتاب بالضرورة عن رأي الدار وتقتصر مسئولية الدار على التدقيق اللغوي والإخراج الفني فقط

شرح
تعليم المتعلم

للإمام العالم العلامة الحبر البحر
الفهامة ذي المقام الجليل

الشيخ إبراهيم بن إسماعيل
على الرسالة المسماة

بتعليم المتعلم طريق التعلم

لسيد زمانه وعلامة أوانه الشيخ
الزرنوجي

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة..	٥
فصل في ماهية العلم والفقه وفضله	١١
فصل في النية في حال التعلم................................	٢٥
فصل في اختيار العلم والأستاذ والشريك والثبات عليه	٣٣
فصل في تعظيم العلم وأهله	٤٣
فصل في الجد والمواظبة والهمة............................	٥٥
فصل في بداية السبق وقدره وترتيبه	٧٥
فصل في التوكل..	٩٢
فصل في وقت التحصيل.....................................	٩٦
فصل في الشفقة والنصيحة..................................	٩٧
فصل في الاستفادة	١٠٢
فصل في الورع في حال التعلم..............................	١٠٦
فصل فيما يورث الحفظ وفيما يورث النسيان	١١٢
فصل فيما يجلب الرزق وما يمنع الرزق وما يزيد في العمر وما ينقص..	١١٧

***

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله

الحمد لله الذي أنعم علينا بأنواع النعم ولطائف الإحسان وفضلنا على سائر خلقه بتعليم العلم والبيان والصلاة والسلام على محمد المبعوث بخير الملل والأديان، وعلى آله وأصحابه بدور معالم الإيمان وشموس عوالم العرفان (وبعد) فلما رأيت الكتاب المسمى بتعليم المتعلم مرغوبًا ومقبولًا بين أولي التعليم والتعلم خصوصًا بين الطالبين الساكنين في حرم أشرف الملوك والسلاطين وكان في بعض نظمه ونثره مواضع محتاجة لكشف أستاره أردت أن أشرحه شرحًا يبين معاقده، ويكشف معانيه ومبانيه رجاء من الطالبين الملتمسين أن يذكروني في دعائهم إلى يوم الدين وجعلته تحفة للحضرة الرفيعة والسدة السنية لازالت كعبة الآمال وقبلة الإقبال.

عم البرايا جميعًا فيضُ راحته ... كما تعم أيادي البحر والمطر

هيهات إنهما جادا بدون حجا ... وأنه بالمعاني أعلم البشر

أعني به السلطان الأعظم والخاقان المعظم صفوة سلاطين الأمم ظل الله على مفارق أهل الدنيا العالم مولى ملوك العرب والعجم السلطان ابن السلطان السلطان مراد خان ابن سليم خان خلد الله له خلافته وأيد سلطنته ما دار الفلك الدوار واختلف الليل والنهار وأنا أرجو من محاسن كرمه وكمال شيمه أن يقبله بحسن القبول إنه خير مأمول وأكرم مسئول، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت إليه أنيب.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

(الحمد لله) الحمد هو الوصف بالجمل الاختياري على وجه التعظيم، والتبجيل وهو باللسان وحده، والشكر يكون باللسان والجنان والأركان لكن في مقابلة النعمة خاصة فعلى هذا يكون بينهما عموم وخصوص من وجه، وبقيد الاختياري خرج المدح فإنه لا يختص بالاختياري بل يوجد في غيره كما يقال مدحت زيدًا على حسنه ورشاقة قده فليس بينهما ترادف بل بينهما أخوة من جهة الاشتقاق الكبير وتناسب تام في المعنى

كالنصرة والتأييد فإنهما متناسبان معنىً من غير ترادف، وإنما مرادف النصر الإعانة ومرادف التأييد التقوية فتدبر، وارتفاعه بالابتداء وخبره الظرف وأصله حمدًا بالنصب كما هو شأن المصادر المنصوبة بأفعالها المضمرة التي لا تستعمل معها نحو شكرًا وعجبًا، وإيثار الرفع علىٰ النصب للإيذان بأن ثبوت الحمد لله تعالىٰ لذاته لا لإثبات مثبت، وأن ذلك أمر دائم لا حادث متجدد كما يفيده النصب. والله اسم للذات الواجب الوجود المستجمع لجميع الصفات الإلهية وهو وجه الاختيار علىٰ سائرها وهو عند الخليل وابن كيسان وأبي حنيفة غير مشتق وهو الأصح، ووجهه مبين في المفصلات فلينظر ثمة.

(الذي فضل بني آدم) وصفه بهذا الوصف بقوله تعالىٰ في حقهم ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠] وآدم اسم أعجمي والأقرب أن وزنه فاعل كشالح لا أفعل، والتصدي لاشتقاقه من الأدمة بالفتح بمعنىٰ الأسوة، أو من أديم الأرض بناء علىٰ ما روي عن النبي ﷺ من أن الله تعالىٰ قبض قبضة من جميع الأرض سهلها وحزنها فخلق منها آدم، ولذلك اختلف ألوان ذريته، أو من الأدم والأدمة بمعنىٰ الأنفة تعسف كاشتقاق إدريس من الدرس ويعقوب من العقب وإبليس من الإبلاس.

(بالعلم والعمل علىٰ جميع العالم) قيل العالم اسم لذوي العلم من الملائكة والثقلين وقال المتكلمون العالم اسم لكل موجود يعلم به الخالق سواء كان من ذوي العلم أو لا كالطابع لما يطبع به والخاتم لما يختم به.

يقال عالم الملك وعالم الإنس والجن وكذا عالم الأفلاك وعالم النبات وعالم الحيوان، وليس اسمًا لمجموع ما سوىٰ الله تعالىٰ بحيث لا يكون له أفراد بل أجزاء فيمتنع جمعه سمي به لكونه علامة علىٰ وجود الصانع وهو في الأصل علم زيد الألف للإشباع، روي عن وهب بن منبه أنه قال: إن لله تعالىٰ ثمانية عشر ألف عالم والدنيا عالم منها.

(والصلاة) وهي من الله الرحمة والمغفرة ومن عباده دعاء ومن ملائكته استغفار؛ فإذا قيل إن الله تعالىٰ يصلي علىٰ فلان فالمراد منه أنه تعالىٰ يرحمه ويغفر له وإذا قيل إن فلانًا يصلي علىٰ فلان فالمراد منه أنه يدعو له، وإذا قيل إن الملائكة يصلون علىٰ فلان فالمراد منه أنهم يستغفرون له.

(علىٰ محمد) ومعناه المحمود المشكور مرة بعد أخرىٰ كالمكرم الذي أكرم مرة بعد أخرىٰ فهو المحمود في الدنيا لما نفع به الخلق من العلم والحكمة والمحمود في الآخرة

سيد العرب والعجم، وعلىٰ آله وأصحابه ينابيع العلوم والحكم.

وبعد،،،

فلما رأيت كثيرًا من طُلاب العلم في زماننا يَجِدُّون إلىٰ العلم

بشفاعته عند ربه كذا في شرح المقدمة، وفي الصحاح التحميد أبلغ من الحمد، والمحمد الذي كثرت خصاله المحمودة، وهذا إشارة إلىٰ أن التكثير في الفعل مثل جوّلت وطوفت، وآمنة أم النبي عليه الصلاة والسلام التي سمته به حين ولدته بإشارة إلهية، قال صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم: «**اسمي محمد الذي سماني به أهلي**»، وروىٰ ثوبان مولىٰ رسول الله ﷺ أن آمنة لما حملت بالنبي صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم أتيت فقيل حملت بسيد هذه الأمة فإذا وقع علىٰ الأرض فقولي أعيذه بالواحد من شر كل حاسد ثم سميه محمدًا، فلما وضعته سمته محمدًا.

(**سيد العرب والعجم**) العرب بالفتح والضم اسم جنس وكذا العجم، والمراد من العجم غير العرب كائنًا من كان، والدليل علىٰ أنه سيدهما قوله صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر لي**».

(**وعلىٰ آله**) والآل في الأصل الأهل ولهذا قيل في تصغيره أهيل فإنه قد خص بالإشراف فلا يقال آل حائك وقيل آل فرعون لتصوره بصورة الأشراف، وآله من جهة النسب أولاد علي وعباس وجعفر وعقيل وحارث بن عبد المطلب، ومن جهة -السبب وهو الدين- كل مؤمن أو كل مؤمن تقي علىٰ اختلاف الروايتين والظاهر أنه أراد به من جهة الدين لأن آل الأنبياء متبعوهم قال الله تعالىٰ في ولد نوح عليه الصلاة والسلام ﴿**إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ**﴾ [هود: ٤٦] لما نادي ربه وقال ﴿**إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي**﴾ [هود: ٤٥] نفىٰ ابنه أن يكون من أهله مع أنه ابنه خلق من مائه لما لم يكن متبعًا له.

(**وأصحابه**) جمع صاحب وهو كل من صحب النبي صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم وشرف بشرف رؤية جماله، (**ينابيع**) جمع ينبوع وهو عين الماء.

(**العلوم**) فهذا من قبيل إضافة المشبه به إلىٰ المشبه كلجين الماء، والجامع كونهما في غاية اللطافة ونهاية القبول، (**والحكم**) جمع حكمة وهي العلم بالأشياء علىٰ ما هي عليه.

(**وبعد فلما رأيت كثيرًا من طلاب العلم في زماننا يجدون**) بكسر الجيم من الجد وهو السعي أو من الإجداد وهو السعي أيضًا، يقال: جد في الأمر وأجد فيه أيضًا، والجملة مفعول ثان لرأيت (**إلىٰ العلم**) متعلق بقوله:

ولا يصلون، أو من منافعه وثمراته -وهي العمل به والنشر- يُحرمون؛ لما أنهم أخطئوا طرائقه، وتركوا شرائطه، وكل من أخطأ الطريق ضل، ولا ينال المقصود قل أو جل- أردت وأحببت أن أبين لهم طريق التعلم، علىٰ ما رأيت في الكتب وسمعت من أساتيذي أولي العلم والحكم، رجاء الدعاء لي من الراغبين فيه المخلصين، بالفوز والخلاص في يوم الدين بعدما استخرت الله تعالىٰ فيه

(ولا يصلون) من الوصول والمصنف ذكر علته فيما بعد، (أو من منافعه وثمراته) الضميران يرجعان إلىٰ العلم، (وهي العمل به والنشر) أي نشر مسائله بالتعليم، وقوله: أو من منافعه متعلق بقوله:

(يحرمون) بكسر الراء من باب حسب من الحرمان، ولما بين أحوال طلبة زمانه من كونهم مجدين ولكن لا يكونون واصلين مطلب العلم بل يكونون محرومين من منافع العلم وثمراته بَيَّن علتها فقال:

(لما أنهم أخطئوا طرائقه) أي في طرائق طلب العلم، (وتركوا شرائطه) التي تذكر في هذا الكتاب، (وكل من أخطأ الطريق) الموصل إلىٰ المطلوب (ضل) أي يصير واقعًا في الضلالة.

(ولا ينال المقصود قلَّ أو جلَّ) أي صغر ذلك المطلوب أو عظم (أردت) جواب لما (وأحببت أن أبين لهم) أي للطلاب (طريق التعلم) كائنًا (علىٰ ما رأيت في الكتب وسمعت) معطوف علىٰ رأيت.

(من أساتيذي أولي العلم والحكم) قوله أولي جمع ذي لا علىٰ لفظه مجرور علىٰ أنه صفة لأساتيذي وهي جمع أستاذ مضافة إلىٰ ياء المتكلم (رجاء) حال من فاعل أن أبين بمعنىٰ راجيًا.

(الدعاء لي) مفعول رجاء (من الراغبين) متعلق بقوله رجاء أو بمحذوف علىٰ أنه حال من الدعاء أي كائنًا من الراغبين (فيه) أي في العلم (المخلصين) بفتح اللام.

(بالفوز) أي بالظفر علىٰ المراد (والخلاص في يوم الدين) أي في يوم القيامة (بعدما استخرت الله تعالىٰ فيه) العامل في بعد أردت أي أردت بيان طريق التعلم لهم بعدما طلبت من الله تعالىٰ الخيرة فيه.

وسميته: (تعليم المتعلم طريق التعلم).

وجعلته فصولًا:

فصل: في ماهية العلم والفقه وفضله.

فصل: في النية في حال التعلم.

فصل: في اختيار العلم والأستاذ والشريك والثبات.

فصل: في تعظيم العلم وأهله.

فصل: في الجد والمواظبة والهمة.

فصل: في بداية السبق وقدره وترتيبه.

فصل: في التوكل.

فصل: في وقت التحصيل.

فصل: في الشفقة والنصيحة.

فصل: في الاستفادة.

فصل: في الورع حال التعلم.

فصل: فيما يورث الحفظ، والنسيان.

فصل: فيما يجلب الرزق، وما يمنع، وما يزيد في العمر، وما ينقص.

وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

(وسميته) معطوف على أردت، والضمير راجع إلى الكتاب المذكور حكمًا (تعليم المتعلم) قوله المتعلم مفعول أول للتعليم ومفعوله الثاني (طريق التعلم وجعلته فصولًا) وهي ثلاثة عشر فصلًا.

(فصل) أي فصل من الفصول (في ماهية العلم والفقه وفضله، فصل في النية في حال التعلم، فصل في اختيار العلم والأستاذ والشريك والثبات، فصل في تعظيم العلم وأهله، فصل في الجد والمواظبة والهمة، فصل في بداية السبق) بفتح الباء، (وقدره) أي مقداره.

(وترتيبه) أي ترتيب قراءته بالتقدم والتأخر، (فصل في التوكل، فصل في وقت التحصيل، فصل في الشفقة والنصيحة، فصل في الاستفادة، فصل في الورع حال التعلم، فصل فيما يورث الحفظ والنسيان فصل فيما يجلب الرزق وما يمنع وما يزيد في العمر وما ينقص، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب).

فصل

في ماهية العلم والفقه وفضله

قال رسول الله صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم: «طَلَبُ العِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ».

اعلم بأنه لا يفترض علىٰ كل مسلم ومسلمة طلبُ كل علم، بل يفترض عليه طلب علم الحال.

(فصل في ماهية العلم)

أي في حقيقة العلم (والفقه وفضله) أي فضل كل منهما، والمصنف قدم في الإجمال ماهية العلم وفي التفصيل قدم بيان فضله تنبيهًا علىٰ أن المقصود في هذا الكتاب أولًا بيان فضل العلم والفقه تحريضًا للطالبين علىٰ طلبهما وثانيًا بيان ماهيتهما لئلا يلزم طلب المجهول؛ فقدم ما هو المقصود بالذات فقال.

(قال رسول الله صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم طلب العلم فريضة علىٰ كل مسلم ومسلمة) ابتدأ بالحديث الشريف تبركًا وتيمنًا يعني طلب العلم فرض عين علىٰ كل مسلم مكلف ومسلمة مكلفة كالعلم المتكفل ببيان معرفته تعالىٰ بالوحدانية ومعرفة صفاته، وصدق الرسول إذا لا يجوز التقيد فيه لقوله تعالىٰ ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] وقوله ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣] وكعلم الصلاة والطهارة علىٰ كل مسلم بالغ فقيرًا كان أو غنيًّا وكعلم الزكاة والحج إن وجبا عليه وأما بلوغ رتبة الاجتهاد والفتوىٰ ففرض كفاية إذا قام به واحد من أهل بلد كفىٰ وسقط عن الباقين وعليهم التقليد فيما يخطر لهم من الحوادث وإن تقاعدوا كلهم عنه عصوا جميعًا فإذن المسلم والمتعلم كل منهما عام مخصوص بعلم ابتلي به وعلم عاقل بالغ كذا في شرح المصابيح، وإلىٰ هذا المعنىٰ أشار المصنف فقال.

(اعلم بأنه) الضمير للشأن (لا يفترض علىٰ كل مسلم ومسلمة طلب كل علم بل يفترض عليه طلب علم الحال) وهو علم أصول الدين وعلم الفقه والمراد من الحال هاهنا الأمر العارض للإنسان من الكفر والإيمان والصلاة والزكاة والصوم وغيرها من الأحوال لا الحال المقابل للمستقبل.

كما يقال: أفضل العلم علم الحال، وأفضل العمل حفظ الحال.

يفترض على المسلم طلب علم ما يقع له في حاله في أي حال كان، فإنه لابد له من الصلاة؛ فيفترض عليه علم ما يقع له في صلاته بقدر ما يؤدي به فرض الصلاة ويجب عليه علم ما يقع له بقدر ما يؤدي به الواجب؛ لأن ما يُتوسل به إلى إقامة الفرض يكون فرضًا، وما يُتوسل به إلى إقامة الواجب يكون واجبًا، وكذلك في الصوم والزكاة -إن كان له مال- والحج إن وجب عليه، وكذلك في البيوع إن كان يتَّجرُ.

(كما يقال أفضل العلم علم الحال وأفضل العمل حفظ الحال) من الضياع والفساد، (ويفترض على المسلم طلب علم ما يقع له)أي للمسلم (في حاله) أي في صلاته مثلًا من المفسدات والمصلحات.

(في أي حال كان) أي في الصحة والمرض والسفر والحضر (فإنه لابد من الصلاة فيفترض عليه علم ما يقع له في صلاته) من الشرائط والأركان (بقدر ما يؤدىٰ به فرض الصلاة) مثلًا القراءة فرض في الصلاة فعلم فريضة مقدار ما يؤدي به الصلاة يعني آية طويلة أو ثلاث آيات قصار فرض أيضًا.

(ويجب عليه) أي على المسلم (علم ما يقع له) في صلاته (بقدر ما يؤدىٰ به الواجب) مثلًا ضم السورة واجب في الصلاة وعلمه أيضًا واجب، (لأن ما يتوسل به إلى إقامة الفرض يكون فرضًا) كالوضوء فإنه وسيلة لها فيكون فرضًا.

(وما يتوسل به إلى إقامة الواجب يكون واجبًا) فالعلم بالفروض والواجبات سبب لإقامتها فيكون فرضًا واجبًا مثلها، (وكذلك في الصوم والزكاة إن كان له مال) الشرط فيه للزكاة.

(والحج إن وجب عليه) يعني يفترض عليه علم هذه الأشياء كما تفترض أنفسها (وكذلك) أعاد لفظة كذلك إشارة إلى المغايرة من جهة كون ما سبق من العبادات وما سيأتي من المعاملات.

(في البيوع إن كان يتجر) من التجارة يعني يفترض على كل مسلم علم ما يقع في مبايعاته الشرعية ليتحرز به فيها عن الربا والشبهات والخلل والفساد وأيد هذا المعنى بقوله.

قيل لمحمد بن الحسن رحمه الله تعالىٰ: ألا تصنف كتابًا في الزهد؟

قال: صنفت كتابًا في البيوع! يعني: الزاهد من يتحرز عن الشبهات والمكروهات في التجارات، وكذلك يجب في سائر المعاملات والحِرَف، وكل من اشتغل بشيء منها يفترض عليه علم التحرز عن الحرام فيه، وكذلك يفترض عليه علم أحوال القلب من: التوكل،

(قيل لمحمد بن الحسن رحمه الله تعالىٰ ألا تصنف كتابًا في الزهد) ألاَّ بالتشديد كلمة تحضيض فمعناها إذا دخلت علىٰ الماضي التوبيخ واللوم علىٰ ترك الفعل ومعناها في المضارع الحث علىٰ الفعل والطلب له فهي في المضارع بمعنىٰ الأمر، يعني خاطب بعض التلاميذ محمد بن الحسن بقولهم ألا تصنف كتابًا في الزهد محرضين إياه علىٰ تصنيف كتاب في الزهد وفي بعض النسخ لم لا تصنف كتابًا فحينئذ يكون استفهامًا عن علة عدم تصنيفه.

(قال صنفت كتابًا في البيوع) وفي بعض النسخ بالإضافة فعلىٰ النسخة الأولىٰ يكون المعنىٰ صنفت كتابًا في أحوال البيوع من الصحة والفساد وطرق التحرز فيها عن الشبهات والمكروهات (يعني) هذا التفسير من المصنف وإنما فسر كلامه لأن ظاهر كلامه لا يكون جوابًا لسؤالهم لأن أحوال الزهد غير أحوال البيوع؛ لأنه عبارة عن ترك الزينة والهوىٰ والدنيا فلا يناسب بيانها في كتاب البيوع فلابد من تفسير كلامه.

(الزاهد من يتحرز) أي يحفظ نفسه (عن الشبهات) جمع شبهة أي عن تناول الأشياء التي في حلها شبهة (والمكروهات) أي عن الأشياء التي لا يجوز فعلها مع الكراهة (في التجارات) ظرف لقوله يتحرز فالزهد الذي هو ترك هوىٰ نفسه كان موجودًا في التحرز عن الشبهات فكان كتاب الزهد كتاب البيوع لا محالة.

(وكذلك يجب) التحرز عن الشبهات (في سائر المعاملات والحرف) أي الصنائع جمع حرفة (وكل من اشتغل بشيء منها) أي من هذه المذكورات (يفترض عليه علم التحرز عن الحرام فيه) أي في ذلك الشيء.

(وكذلك) أعاد لفظة كذلك أيضًا للمغايرة بين ما سبق من الأحوال وما سيأتي من جهة أن ما سبق أحوال القالب وما سيأتي أحوال القلب (يفترض عليه علم أحوال القلب من التوكل) وهو إظهار العجز والاعتماد علىٰ الغير يقال توكل علىٰ الله أي أسلم أمره إليه.

والإنابة، والخشية، والرضا، فإنه واقع في جميع الأحوال.

وشرف العلم لا يخفىٰ علىٰ أحد؛ إذ هو مختص بالإنسانية؛ لأن جميع الخصال سوىٰ العلم يشترك فيها الإنسان وسائر الحيوانات؛ كالشجاعة، والجرأة والقوة والجود والشفقة وغيرها سوىٰ العلم، وبه أظهر الله تعالىٰ فضل آدم عليه الصلاة والسلام علىٰ الملائكة،

(والإنابة) أي الرجوع إلىٰ الله تعالىٰ (والخشية) وهي الخوف من الله تعالىٰ (والرضا) بحكم الله وقضائه (فإنه) تعليل للافتراض أي العلم بأحوال القلب (واقع في جميع الأحوال) غير مختص بحال دون حال فيفترض علمها في كل حال بخلاف الفروض التي تفترض بحال دون حال فإن فرضية علمها مختصة بتلك الحال وأما في غير تلك الحال فعلمها فرض كفاية إذا قام به أحد سقط عن الباقين.

(وشرف العلم لا يخفىٰ علىٰ أحد إذ هو) أي العلم (مختص بالإنسانية) أي بصفة الإنسانية (لأن جميع الخصال سوىٰ العلم يشترك فيها الإنسان وسائر الحيوانات كالشجاعة) تمثيل للخصال.

(والجرأة) وهي الشجاعة التي هي شدة القلب عند البأس فهما لفظان مترادفان كذا في الصحاح والقاموس (والقوة والجود) وفيه بحيث يعلم بالتأمل (والشفقة) بفتح الفاء.

(وغيرها سوىٰ العلم) هذا مستغنىٰ عنه لذكره آنفًا (وبه) أي بالعلم متعلق بقوله (أظهر الله تعالىٰ) قدم للتخصيص (فضل آدم عليه الصلاة والسلام علىٰ الملائكة) جمع مألك باعتبار أصله الذي هو ملاك علىٰ أن الهمزة مزيدة كالشمائل في جمع شمأل والتاء لتأكيد تأنيث الجماعة واشتقاقه من ملك لما فيه من معنىٰ الشدة والقوة وقيل علىٰ أنه مقلوب من مألك من الألوكة وهي الرسالة أي موضع الرسالة ومرسل علىٰ أنه مصدر بمعنىٰ المفعول فإنهم وسائط بين الله تعالىٰ وبين الناس فهم رسله أو بمنزلة رسله عليهم الصلاة والسلام واختلف في حقيقتهم بعد الاتفاق علىٰ أنها ذوات موجودة قائمة بأنفسها فذهب أكثر المتكلمين إلىٰ أنها أجسام لطيفة قادرة علىٰ التشكل بأشكال مختلفة مستدلين بأن الرسل كانوا يرونهم كذلك، وذهب الحكماء إلىٰ أنها جواهر مجردة مخالفة للنفوس الناطقة في الحقيقة وأنها أكمل منها علمًا وأكثر قوة تجري منها مجرىٰ الشمس من

وأمرهم بالسجود له، وإنما شَرُف العلم لكونه وسيلةً إلى التقوى

الأضواء منقسمة إلى قسمين قسم شأنهم الاستغراق في معرفة الحق والتنزه عن الاشتغال بغيره كما نعتهم الله عز وجل بقوله ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [الأنبياء: ٢٠] وهم العليون المقربون يدبرون الأمر من السماء إلى الأرض حسب ما جرى عليهم قلم القضاء والقدر وهم المدبرات أمرًا ومنهم أرضية ومنهم سماوية، وفي بيان كثرتهم تفاصيل فليطلب في المفصلات وبيان إظهار فضل آدم على الملائكة مذكور في تفسير قوله تعالى ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] فلينظر ثمة.

(وأمرهم بالسجود له) السجود في اللغة الخضوع وفي الشرع وضع الجبهة على الأرض على قصد العبادة فقيل أمروا بالسجود له عليه الصلاة والسلام على وجه التحية والتكرمة تعظيمًا له واعترافًا وأداء لحق التعليم واعتذارًا لما وقع منهم في شأنه وقيل أمروا بالسجود له وإنما كان آدم قبلة لسجودهم تفخيمًا لشأنه وسببًا لوجوبه فكأنه لما رآه أنموذجًا للمبتدعات كلها ونسخة منطوية على تعلق العالم الروحاني بالعالم الجسماني وامتزاجهما على نمط بديع أمرهم بالسجود له لما عاينوا من عظم قدرته فعلى هذا تكون اللام في قوله اسجدوا لآدم بمعنى إلى كما في قول حسان بن ثابت.

أليس أول من صلى لقبلتكم ... وأعرف الناس بالقرآن والسنن

أو للتوقيت كما في قوله تعالى ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾ أي اسجدوا الله وقت خلقه آدم عليه الصلاة والسلام والقول الأول أظهر.

(وإنما شرف العلم) على صيغة الفعل من باب حسن أو على صيغة المصدر على أنه مبتدأ وما بعده خبر يعني ما صار العلم أشرف وأفضل إلا (لكونه وسيلة إلى التقوى) اسم الاتقاء من الوقاية وهي فرط الصيانة، وفي عرف الشرع عبارة عن كمال التوقي عما يضره في الآخرة، وعن عمر بن عبد العزيز أنه ترك ما حرم الله تعالى وأداء ما فرض وعن بعض العلماء: المتقي من يترك مالا بأس به حذرًا من الوقوع فيما فيه بأس، وعن بعضهم بين يدي التقوى خمس عقبات لا ينالها من لا يجاوزهن إيثار الشدة على النعمة وإيثار الضعف على القوة وإيثار الذل على العزة وإيثار الجهد على الراحة وإيثار

الذي يستحق به الكرامة عند الله تعالى والسعادة الأبدية، كما قيل لمحمد بن الحسن بن عبدالله:

تَعَلَّـــمْ فَـــإِنَّ العِلْـــمَ زَيْـــنٌ لأَهْلِـــهِ ....

الموت على الحياة، والتحقيق أن للتقوى ثلاث مراتب الأولى التوقي عن العذاب المخلد بالتبري عن الكفر وعليه قوله تعالى ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [الفتح: ٢٦] والثانية التجنب عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك حتى الصغائر عند قوم وهو المتعارف بالتقوى في الشرع وهو المعني بقوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟﴾ [الأعراف: ٩٦] والثالثة أن يتنزه عن كل ما يشغل سره عن الحق عز وجل ويتبتل إليه بكليته وهو التقوى الحقيقي المأمور به في قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

(الذي يستحق به الكرامة) مرفوع على أنه مفعول لما لم يسم فاعله لقوله يستحق (عند الله تعالى والسعادة الأبدية) معطوف على الكرامة وإنما صار العلم وسيلة إلى التقوى لأن الاتقاء عما نهى الله تعالى موقوف على العلم به فلو لم يكن معلومًا كيف يتقى عنه، وإذا حصل التقوى عن محارم الله تعالى فاز بالدولة الأبدية والسعادة السرمدية وهي الوصول إلى أعلى مراتب الجنان ولقاء الله الملك المنان يسرها الله بحرمة نبيه محمد المبعوث في آخر الزمان.

(كما قيل) هذا استدلال على كون العلم وسيلة إلى التقوى أي خوطب (لمحمد بن الحسن بن عبد الله) بن طاوس بن هرمز بن نوشروان فثبت أن بينه وبين أبي حنيفة قرابة وسماه صاحب المنظومة بالعالم الرباني منسوبًا إلى الرب وينبغي أن يقول الربي إلا أنه زاد الألف والنون للمبالغة أي الذي يعمل للرب جل جلاله وقيل هو الذي يربي المتعلمين بصغار العلوم قبل كبارها وهو تلميذ أبي يوسف رحمه الله تعالى.

(تعلم فإن العلم زين لأهله) قوله تعلم أمر حاضر، وقوله: زين لأهله أي زينة لأهل العلم في التفسير إن أولى الأشياء بعد التوحيد أن يتعلم علم الفقه لأن الله تعالى أرى الملائكة فضل آدم عليه الصلاة والسلام بعلم الفقه فقال: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [البقرة: ٣١] وعلم العربية من أهم العلوم لكن الأصول والفروع محتاجة إليه في التحقيق وأنه مأثور عن عمر وعن علي رضي الله عنهما، حكي أن أعرابيًا سمع رجلًا يقرأ قوله تعالى ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ٣] بالكسر فقال إن كان الله تعالى بريئًا من رسوله فأنا بريء منه فذهب الرجل إلى عمر رضي الله تعالى عنه فحكى الأعرابي قراءته فعنده أمر رضي الله تعالى عنه بتعلم العربية فقال علي رضي الله عنه الفاعل مرفوع والمفعول منصوب والمضاف إليه مجرور وتعلم الكلام والمناظرة فيما وراء قدر الحاجة مكروه، لما روي أن أبا حنيفة نهى ابنه حمادًا عن ذلك فقال يا أبي رأيتك فيما نهيتني عنه فقال يا بني كنا نتكلم فيه وكل واحد منا كأن على رأسه الطير مخافة أن يزل صاحبه وأنتم تتكلمون وكل واحد منكم يريد أن يزل صاحبه وهذا كإرادة أن يكفر صاحبه فمن أراد هذا يكفر قبل أن يكفر صاحبه وكذا الاشتغال بعلم المنطق وأمثاله كما قيل في الشعر:

قــل للحكــيم الفيلــسوف المنطقــي ... علــم حـــرام درســـه لا تنطـــق

احفــظ عنانــك عــن منــاهج درســه ... إن الـــبلاء موكـــل بـــالمنطق

وتعلم الكتابة والخط من الأمور الجائزة والمعارف المعتبرة فإن الله تعالى أقسم به في كلامه المجيد بقوله: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١] وقال: ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾، وقال ﷺ «جف القلم بما هو كائن» إلا أنه كره تعلمه للنساء لقوله عليه الصلاة والسلام «لا تعلموا النساء الخط» وقال بعض العلماء اعلم أن الخط الحسن طراز الأدب وقيل هو نصف العلم، وقال بعض المفسرين في قوله تعالى ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فاطر: ١]: أراد به الخط، وقال فضيل بن سهيل: من سعادة المرء أن يكون صاحب حسن الخط، وفصيح العبارة، وقال الشاعر:

تعلــم قـــوام الخـــط يـــاذا التـــأدب ... ومـــا الخـــط إلا زينـــة المتـــأدب

فـــإن كنـــت ذا مـــال فخطـــك زينـــة ... وإن كنـــت محتاجًـــا فأفـــضل مكـــسب

.... وَفَـضْلٌ وَعُنْـوَانٌ لِكُـلِّ المَحَامِـدِ

وَكُـنْ مُـسْتَفِيدًا كُـلَّ يَـوْمٍ زِيَـادَةً مِـنَ العِلْـمِ وَاسْـبَحْ فِي بُحُـورِ الفَوَائِـدِ

تَفَقَّـهْ فَـإِنَّ الفِقْـهَ أَفْـضَلُ قَائِـدٍ إِلَى الـبِرِّ وَالتَّقْـوَىٰ وَأَعْـدَلُ قَاصِـدِ

هُـوَ العَلَـمُ الهَـادِي إِلَىٰ سُـنَنِ الهُـدَىٰ هُوَ الحِصْنُ يُنْجِي مِـنْ جَمِيـعِ الـشَّدَائِدِ

(وفضل وعنوان لكل المحامد) العنوان العلامة والمحامد جمع المحمدة وهي مصدر بمعنىٰ المفعول أي العلم فضل وعلامة لكل الخصال المحمودة المقبولة عند الله تعالىٰ والناس.

(وكن مستفيدًا كل يوم زيادة) قوله مستفيدًا خبر كن وكل يوم ظرف وقع مفعولًا فيه وزيادة مفعول به لقوله مستفيدًا (من العلم واسبح في بحور الفوائد) قوله من العلم متعلق بمحذوف وقع صفة لقوله زيادة وقوله واسبح أمر معطوف علىٰ كن من السبح وهو الذهاب علىٰ وجه الماء وقوله في بحور الفوائد من قبيل لجين الماء أي في فوائد كالبحار، والمعنىٰ: كن طالبًا زيادة فائدة من العلم كل يوم واسبح سباح حوت في قلزم المعاني والفوائد، فإن أفضل الأنبياء محمدًا ﷺ كان يقول في دعائه رب زدني علمًا لأنه بهذا أمره ربه تعالىٰ بقوله ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، والحال أنه عالم بعلم الأولين والآخرين فكيف تقنع أيها الطالب بما حصلته من العلم وهو في جنب علمه عليه الصلاة والسلام كالقطرة من البحر.

(تفقه فإن الفقه أفضل قائد) قوله تفقه أمر من باب التفعل، أي كن ساعيًا ومتكلفًا في تحصيل علم الفقه فإنه أفضل قائد أي أفضل دليل، (إلى البر والتقوىٰ وأعدل قاصد) المقصد العدل يعني أن علم الفقه أعدل جنس العادل لأنه علم يبين الشرائع والأحكام التي لا ظلم فيهما قطعًا؛ لأنها أحكام الله تعالىٰ قطعًا المنزه عن الظلم لعباده لأنه من سمات العجز والنقص والله تعالىٰ منزه عنهما.

(هو العلم الهادي إلىٰ سنن الهدىٰ) السنن بالفتح الطريق والهدىٰ بمعنىٰ الهداية وهي الدلالة بلطف إلىٰ ما يوصل إلىٰ المطلوب أي علم الفقه هو الذي يدل الناس بلطف إلىٰ طريق يوصل إلىٰ المطلوب وهو الفوز بالحياة الأبدية والسعادة السرمدية التي هي الوصول إلىٰ جناب رحمته والستر بأستار لطفه ومغفرته.

(هو الحصن) خاصة (ينجي) طالبه ومتعلمه (من جميع الشدائد) التي من جملتها الجهل بأوامر الله تعالىٰ ونواهيه فإن الجهل بها من أعظم الشدائد كما لا يخفىٰ.

فَـــإِنَّ فَقِيهًـــا وَاحِـــدًا مُتَوَرِّعًـــا أَشَـدُّ عَـلَىٰ الـشَّيْطَانِ مِـنْ أَلْـفِ عَابِـدِ

وكذلك في سائر الأخلاق نحو: الجود، والبخل، والجبن، والجراءة، والتكبر، والتواضع، والعفة، والإسراف والتقتير وغيرها.

فإن الكبر، والبخل، والجبن، والإسراف حرام، ولا يمكن التحرز عنها إلا بعلمها وعلم ما يضادها؛ فيفترض علىٰ كل إنسان علمها، وقد صنف السيد الإمام الأجل الشهيد ناصر الدين أبو القاسم كتابًا في الأخلاق، ونعم ما صنف،

(فإن فقيهًا واحدًا متورعًا) أي متجنبًا عن الحرام كمال التجنب (أشد) خبر إن (علىٰ الشيطان من ألف عابد) غير فقيه يعني بقاء فقيه واحد وحياته أشد وأبغض علىٰ الشيطان من بقاء ألف عابد وحياتهم لأن الفقيه عدو الشيطان لأن الشيطان يأمر الناس بالفسوق والكفر والسبيل المائل عن الحق والفقيه يأمر بالإيمان والطاعة ويدعوهم عن سبيل الشيطان إلىٰ سبيل الرحمن، ولا يحصل من العابد شيء من هذه الأحوال إذا كان غير عالم بل يعبد الله علىٰ غير بصيرة ولم يرد بالألف في مثله العدد المعين بل الكثرة كما تقول لو تمشي إلىٰ زيد ألف مرة لا يعطيك شيئًا.

(وكذلك) معطوف علىٰ كذلك السابق أي مثل افتراض علم أحوال القلب يفترض العلم، (في سائر الأخلاق نحو الجود والبخل والجبن) بضم الجيم أي الخوف، (والجرأة) كالجرعة وهي الشجاعة ويجوز الجراءة كالكراهة.

(والتكبر والتواضع والعفة) أي التحرز عن الحرام (والإسراف والتقتير) وهو التضييق في النفقة (وغيرها فإن الكبر والبخل والجبن والإسراف حرام) هذا علة لافتراض علم هذه الأشياء.

(ولا يمكن التحرز عنها) أي عن المذكورات (إلا بعلمها وعلم ما يضادها) أي ما يكون ضدًّا لها (فيفترض علىٰ كل إنسان علمها) لأنه موقوف عليه التحرز عن الحرام الذي هو فرض والموقوف عليه الفرض فرض فكان علمها مطلوبًا لا لأجل ذاته بل للاحتراز عنه.

(وقد صنف السيد الإمام الأجل الشهيد ناصر الدين أبو القاسم كتابًا في الأخلاق) أي في علم الأخلاق وإيراد هذا الكلام تأييد لما سبق (ونعم ما صنف) نعم من أفعال المدح وما موصوفة بمعنىٰ شيء وصنف صفته والمخصوص بالمدح محذوف أي نعم الشيء الذي صنفه كتاب الأخلاق فكتاب الأخلاق مخصوص بالمدح حذف للعلم به أي هو كتاب الأخلاق.

فيجب علىٰ كل مسلمٍ حفظُها.

وأما حفظ ما يقع في بعض الأحايين ففرض علىٰ سبيل الكفاية؛ إذا قام به البعض في بلدة سقط عن الباقين؛ فإن لم يكن في البلدة من يقوم به اشتركوا جميعًا في المأثم، فيجب علىٰ الإمام أن يأمرهم بذلك، ويجبر أهل البلدة علىٰ ذلك، فقيل: بأن علم ما يقع علىٰ نفسه في جميع الأحوال هو بمنزلة الطعام لابد لكل واحدٍ من ذلك، وعلم ما يقع في بعض الأحايين بمنزلة الدواء يُحتاج إليه في بعض الأوقات،

(فيجب علىٰ كل مسلم حفظها) أي فإذا كان علم الأخلاق فرضًا يجب علىٰ كل مسلم حفظ الأخلاق المذكورة في كتاب أخلاق ناصر الدين، (وأما حفظ ما يقع في بعض الأحايين) جمع حين أي الذي سبق ذكره إلىٰ هنا حفظ ما يقع في جميع الأحوال، وأما حفظ ما يقع في بعض الأزمان كصلاة الجنازة وعيادة المرضىٰ ونحوهما.

(ففرض علىٰ سبيل الكفاية إذا قام به البعض في بلدة) الباء للتعدية أي إذا أقامه البعض في بلدة (سقط عن الباقين) وهذا معنىٰ فرض الكفاية (فإن لم يكن) أي إن لم يوجد.

(في البلدة من يقوم به اشتركوا جميعًا في المأثم) مصدر ميمي بمعنىٰ الإثم (فيجب علىٰ الإمام) أي الخليفة (أن يأمرهم بذلك) أي بالقيام به (ويجبر أهل البلدة علىٰ ذلك) القيام.

(فقيل) أي حكم لأن القول إذا استعمل بالباء يكون بمعنىٰ الحكم (بأن علم ما يقع علىٰ نفسه في جميع الأحوال) أي علم الأشياء التي تثبت علىٰ نفس العبد المسلم في جميع الأحوال (بمنزلة الطعام لابد لكل واحد) من أفراد الإنسان.

(من ذلك) وهذا تمثيل لفرض العين الذي لابد لكل فرد العمل به كالطعام الذي لابد لكل فرد أكله (وعلم ما يقع في بعض الأحايين) معطوف علىٰ علم ما يقع علىٰ نفسه (بمنزلة الدواء) وقوله.

(يحتاج إليه في بعض الأوقات) بيان لكونه بمنزلة الدواء أي كما أن الدواء محتاج إليه في بعض الأوقات كذلك علم ما يقع في بعض الأحيان محتاج إليه في بعض الأوقات كصلاة الجنازة وعيادة المرضىٰ وغيرهما.

وعلم النجوم بمنزلة المرض فتعلُّمُه حرام؛ لأنه يضر ولا ينفع، والهرب من قضاء الله تعالىٰ وقدره غير ممكن، فينبغي لكل مسلمٍ أن يشتغل في جميع أوقاته بذكر الله تعالىٰ والدعاء والتضرع وقراءة القرآن والصدقات الدافعة للبلاء، ويسأل الله تعالىٰ العفو والعافية في الدنيا والآخرة؛ ليصونه الله تعالىٰ عن البلاء والآفات؛ فإن من رُزِق الدعاء لم يُحرم الإجابة؛ فإن كان البلاء مقدرًا يصيبه لا محالة، ولكن ييسره الله تعالىٰ عليه، ويرزقه الصبر ببركة الدعاء.

اللهم إلا إذا تعلم من النجوم قدر ما يعرف به القبلة وأوقات الصلاة فيجوز ذلك.

(وعلم النجوم بمنزلة المرض فتعلمه) (حرام لأنه يضر ولا ينفع والهرب) أي والحال أن الفرار (من قضاء الله تعالىٰ وقدره غير ممكن) فتعلمه علىٰ قصد أن ينجو بتعلمه عن قضاء الله وقدره لغو محض وعبث بحت غايته تعطيل الأوقات وتضييع العمر وهذا ضرر محض.

(فينبغي لكل مسلم أن يشتغل في جميع أوقاته بذكر الله تعالىٰ والدعاء والتضرع وقراءة القرآن والصدقات الدافعة للبلاء) بمقتضىٰ الحديث وهو قوله عليه الصلاة والسلام «الصدقة ترد البلاء وتزيد في العمر».

(ويسأل الله تعالىٰ) معطوف علىٰ أن يشتغل (العفو) أي التجاوز عن السيئات (والعافية) أي الصحة عن البلايا والأسقام (في الدنيا والآخرة) ظرف للعفو والعافية علىٰ سبيل التنازع.

(ليصونه الله تعالىٰ) علة لقوله يسأل (عن البلاء والآفات فإن من رزق الدعاء) أي بالدعاء (لم يحرم الإجابة) أي من الإجابة فتوجه السؤال علىٰ هذا القول بأن البلاء إذا كان مقدرًا وقوعه يصيبه لا محالة فكيف تحصل الإجابة فأجاب بقوله.

(فإن كان البلاء مقدرًا يصيبه لا محالة) مصدر ميمي بمعنىٰ التحول أي لا تحول ولا انتقال (ولكن ييسره الله تعالىٰ عليه) أي جعله يسيرًا علىٰ ذلك العبد الداعي (ويرزقه الصبر ببركة الدعاء اللهم إلا إذا تعلم) هذا استثناء من قوله فتعلمه حرام.

(من النجوم قدر ما يعرف به القبلة وأوقات الصلاة فيجوز ذلك) جواب إذا، أي يجوز التعلم من علم النجوم مقدار ما يعرف به أحوال القبلة وأوقات الصلاة المفروضة لكونه وسيلة إلىٰ معرفة الأحوال الدينية لا لأنه مقبول في نفسه.

وأما تعلم علم الطب فيجوز لأنه سبب من الأسباب، فيجوز تعلمه كسائر الأسباب، فقد تداوىٰ النبي صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم وقد حكي عن الشافعي رحمة الله تعالىٰ أنه قال: العلم علمان: علم الفقه للأديان، وعلم الطب للأبدان، وما وراء ذلك بلغة مجلس.

وأما تفسير العلم فهو صفة يَتَجلىٰ بها لمن قامت هي به المذكورُ.

(وأما تعلم علم الطب) الذي يحصل به معرفة أحوال الأبدان من الصحة والسقم سمي به لأن الطب في اللغة علاج الجسم.

(فيجوز لأنه سبب من الأسباب فيجوز تعلمه كسائر الأسباب) أي الأدوية (فقد تداوىٰ النبي صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم) علة لجواز التداوي المفهوم من قوله كسائر الأسباب، ويؤيد أيضًا جواز تعلم علم الطب بقوله.

(وقد حكي عن الشافعي رحمه الله تعالىٰ أنه قال العلم علمان علم الفقه) خبر لمبتدأ محذوف أي أحدهما علم الفقه الكائن (للأديان) أي لمعرفتها (وعلم الطب) أي والآخر علم الطب الكائن.

(للأبدان) أي لمعرفة أحوال الأبدان (وما وراء ذلك) المذكور (بُلغة مجلس) البُلغة بالضم ما يتبلغ به من العيش أي ما اكتفي به فجردت هاهنا لمعنىٰ الكفاية أي ما وراء ذينك العلمين كفاية مجلس ليس له نفع سوىٰ كونه رونق المجلس.

(وأما تفسير العلم) هذا شروع في بيان ماهية العلم والقياس تقديمه علىٰ بيان كون طلبه فرضًا أو غيره لأنه عارض من عوارضه والمعروض مقدم علىٰ العارض إلا أنه قدم للاهتمام بشأنه والإشعار بأن البحث عنه أمر مهم ليتنبه الطالب ويشتغل علىٰ طلبه.

(فهو صفة يتجلىٰ) أي يتضح وينكشف الانكشاف التام (بها) أي بتلك الصفة (لمن) متعلق بتجلىٰ (قامت هي به) الضمير راجع إلىٰ الموصول.

(المذكور) فاعل يتجلىٰ أي ما يصح أن يذكر ويمكن أن يعبر عنه وعدل عن الشيء إلىٰ المذكور ليعم الموجود والمعدم وقد يتوهم أن المراد به المعلوم لأن في ذكر العلم ذكر المعلوم، وعدل عنه إلىٰ المذكور تفاديًا عن الدور وبالجملة فقد خرج الظن والجهل إذ لا يتجلىٰ فيهما وكذا اعتقاد المقلد لأنه عقدة علىٰ القلب والتجلي انشراح وانحلال العقدة.

والفقه: معرفة دقائق العلم مع نوع علاج.

قال أبو حنيفة رحمة الله تعالىٰ عليه: الفقه معرفة النفس ما لها وما عليها، وقال: ما العلم إلا العمل به، والعمل به ترك العاجل للآجل، فينبغي للإنسان ألا يغفل عن نفسه وما ينفعها وما يضرها في أولاها وأخراها، فيستجلب ما ينفعها ويجتنب ما يضرها، كيلا يكون عقله وعلمه حجة عليه فيزداد عقوبة - نعوذ بالله من سخطه وعقابه، وقد ورد في مناقب العلم وفضائله آيات

(والفقه) خصه من أنواع العلم بالبيان لشرفه إذ به يحصل سعادة الدنيا والآخرة (معرفة دقائق العلم قال أبو حنيفة) هذا معنىٰ آخر، (الفقه معرفة النفس ما لها) أي ما حصل لها من الخير.

(وما عليها) أي ما حصل لها من الشر، وهذا المعنىٰ أعم من الفقه الذي يعرف به أحوال المكلفين، (وقال) أبو حنيفة أيضًا (ما العلم) ما نافية.

(إلا العمل به والعمل به ترك العاجل) أي الدنيا والاشتغال بأمورها (للآجل) أي لتحصيل الآخرة أي الجنة وما فيها من الدرجات، إذ لا يمكن تحصيلهما معًا لأنهما ضدان والآخرة أبدية باقية فيلزم ترك الفاني لأجل الباقي.

(فينبغي) هذا كلام المصنف، يعني إذا تقرر ما قاله أبو حنيفة رحمه الله تعالىٰ فينبغي (للإنسان أن لا يغفل) من الباب الأول (عن نفسه) أي معرفة نفسه بالعجز والفقر والفناء وإنما فسرنا بهذا لأنه عجز العقلاء عن معرفة حقيقة النفس وقالوا معرفة النفس معرفة صفاته، وحقق هذا البحث في قوله عليه السلام من عرف نفسه فقد عرف ربه.

(وما ينفعها) من العبادات والطاعات (وما يضرها) من الفواحش والمنكرات (في أولاها) أي الدنيا (وأخراها فيستجلب) معطوف علىٰ أن لا يغفل (ما ينفعها) من الثواب والحسنات.

(ويجتنب ما يضرها) من الآثام والسيئات (كيلا يكون) علة لقوله فينبغي (عقله وعلمه حجة عليه) أي شاهدًا ودليلًا يشهد علىٰ ما يضره (فيزداد عقوبة) منصوب علىٰ أنه جواب للنفي وعقوبة تمييز.

(نعوذ بالله من سخطه وعقابه وقد ورد في مناقب العلم) أي بيان مفاخره (وفضائله) هذا شروع في بيان فضل العلم (آيات) فاعل ورد.

وأخبار صحيحة مشهورة لم نشتغل بذكرها كيلا يطول الكتاب.

***

(وأخبار صحيحة مشهورة لم نشتغل بذكرها كيلا يطول الكتاب) ويكفي في فضيلته ما روي عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه أنه قال قال رسول الله ﷺ «من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا سلك الله به طريقًا من طرق الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع وإن العالم ليستغفر له من في السموات والأرض والحيتان في جوف الماء وإن فضل العالم على الجاهل كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وأن العلماء ورثة الأنبياء فإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا وإنما ورثوا العلم فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر» كذا ذكر في كتاب المصابيح، والله تعالى أعلم الصواب.

فصل

في النية في حال التعلم

ثم لابد له من النية في زمان تعلم العلم؛ إذ النية هي الأصل في جميع الأحوال؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ» حديث صحيح.

وعن رسول الله ﷺ: «كَمْ مِنْ عَمَلٍ يُتَصَوَّرُ بِصُورَةِ أَعْمَالِ الدُّنْيَا وَيَصِيرُ بِحُسْنِ النِّيَّةِ مِنْ أَعْمَالِ الآخِرَةِ، وَكَمْ مِنْ عَمَلٍ يُتَصَوَّرُ بِصُورَةِ أَعْمَالِ الآخِرَةِ، ثُمَّ يَصِيرُ مِنْ أَعْمَالِ الدُّنْيَا بِسُوءِ النِّيَّةِ»، وينبغي أنَّ ينوي المتعلم

(فصل)

معنى الفصل في اللغة ظاهر وفي الاصطلاح طائفة من المسائل تغيرت أحكامها بالنسبة إلى ما قبلها غير مترجم بالباب والكتاب فإن فصل عما بعده نون وإلا فلا، كذا في الأكملية، فارتفاعه على أنه خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ على تقدير الوصف أي فصل من الفصول.

(في النية) أي التي حصلت (في حال التعلم ثم لابد له من النية في زمان تعلم العلم إذ النية هي الأصل) خاصة (في جميع الأحوال) مقصودة بالذات أو غير مقصودة إلا أنها جعلت فرضًا في العبادات المقصودة وسنة في غيرها.

(لقوله عليه الصلاة والسلام الأعمال بالنيات) أي صحة الأعمال بالنيات على مذهب الشافعي وحكم الأعمال من الثواب والجزاء بالنيات على مذهب أبي حنيفة (حديث) أي هذا حديث.

(صحيح. وعن رسول الله ﷺ: كم من عمل) كم هاهنا خبرية أي الكثير من الأعمال (يتصور) على بنائه للفاعل أي يصير ذا صورة (بصورة أعمال الدنيا) التي لا ثواب لها.

(ويصير بحسن النية من أعمال الآخرة) كالأكل والشرب والنوم فإن صورتها صورة أعمال الدنيا ويصير كل منها بمقارنة حسن النية من أعمال الآخرة مثلًا إذا قصد بالأكل التقوي على العبادة يصير من أعمال الآخرة وكذا الشرب والنوم وغيرهما.

(وكم من عمل) أي كثير من الأعمال (يتصور) أي يصير ذا صورة (بصورة أعمال الآخرة ثم يصير من أعمال الدنيا بسوء النية) كالأعمال التي فعلت على وجه الرياء (وينبغي أن ينوي المتعلم) هذا شروع لبيان كيفية النية.

بطلب العلم رضا الله تعالىٰ والدار الآخرة، وإزالة الجهل عن نفسه وعن سائر الجهال، وإحياء الدين، وإبقاء الإسلام؛ فإن إبقاء الإسلام بالعلم، ولا يصح الزهد والتقوىٰ مع الجهل.

وأنشد الشيخ الإمام الأجل برهان الدين صاحب الهداية شعرًا لبعضهم:

فَسَادٌ كَبِيرٌ عَالِمٌ مُتَهَتِّكُ ... وَأَكْبَرُ مِنْهُ جَاهِلٌ مُتَنَسِّكُ
هُمَا فِتْنَةٌ فِي العَالَمِينَ عَظِيمَةٌ ... لِمَنْ بِهِمَا فِي دِينِهِ يَتَمَسَّكُ

(بطلب العلم) متعلق بينوي (رضا الله تعالىٰ) مفعول ينوي أي يقصد بتعلم العلم تحصيل رضا الله تعالىٰ (والدار الآخرة) أي دخول الجنة (وإزالة الجهل عن نفسه) بالتعلم.

(وعن سائر الجهال) بتعليمهم العلم (وإحياء الدين) معطوف علىٰ إزالة الجهل (وإبقاء الإسلام فإن إبقاء الإسلام بالعلم ولا يصح الزهد والتقوىٰ مع الجهل وأنشد) الإنشاد قراءة الشعر.

(الشيخ الإمام الأجل برهان الدين صاحب الهداية شعرًا لبعضهم) أي لبعض العلماء (فساد كبير عالم متهتك) المتهتك الذي لا يبالي أن ينهتك ويمزق سره، والعالم المتهتك هو الذي يفعل خلاف الشرع من الأفعال الرديئة ولا يبالي أن يفتضح، وفساد مثل ذلك العالم كبير؛ لأنه يراه الجاهل فيغترون به فيضل ويضلهم.

(وأكبر منه جاهل متنسك) أي متعبد، والجاهل المتنسك هو المقلد في معتقده والجاهل في أفعاله وأقواله لا يعرف صحتها وفسادها كالصوفية في زمننا وإنما كان أكبر من العالم المتهتك في الفساد لأن فساده قد يكون في الاعتقاد والعمل جميعًا فكان أكبر فسادًا من العالم لأن اعتقاده صحيح.

(هما فتنة في العالمين عظيمة) صفة فتنة (لمن) صفة أخرىٰ لها أي للرجل الذي (بهما في دينه يتمسك) أي يتمسك بالعالم والجاهل المذكورين في دينه ويتبعهما في أقواله وأفعاله فالظرفان متعلقان بيتمسك قدما لضرورة الشعر.

وينوي به الشكر علىٰ نعمة العقل وصحة البدن، ولا ينوي به إقبال الناس إليه، ولا استجلاب حطام الدنيا، والكرامة عند السلطان وغيره، قال محمد بن الحسن رحمه الله: لو كان الناس كلهم عبيدي لأعتقتهم، وتبرأت عن ولائهم؛ ومن وجد لذة العلم والعمل به قلما يرغب فيما عند الناس.

(وينوي) منصوب عطفًا علىٰ أن ينوي (به) أي بطلب العلم (الشكر) وهو مقابلة النعمة بالثناء وآداب الجوارح وعقد القلب علىٰ وصف المنعم بنعمة الكمال قال من قال:

أفـــادتكم الـــنعماء منـــي ثلاثـــة ... يـــدي ولـــساني والـــضمير المحجبـــا

(علىٰ نعمة العقل) إضافة بيانية أي نعمة هي العقل (وصحة البدن) معطوف علىٰ المضاف إليه (ولا ينوي به) معطوف علىٰ ينوي أي ينبغي أن لا ينوي به أي بطلب العلم. (إقبال الناس) أي توجههم (إليه ولا استجلاب حطام الدنيا) أي أخذه متاع الدنيا من أيدي الناس (والكرامة) منصوب معطوف علىٰ الإقبال أي التكرم والقرب.

(عند السلطان وغيره) بالجر معطوف علىٰ السلطان ويجوز أن يكون بالنصب أي لا ينوي غير هذا المذكور من الأمور التي لا يكون فيها رضا الله ورسوله (قال محمد بن الحسن رحمه الله تعالىٰ) هذا تأييد لما سبق من أنه لا ينبغي للطالب أن يطلب إقبال الناس.

(لو كان الناس كلهم) تأكيد معنوي (عبيدي) جمع عبد (لأعتقتهم) جواب لو (وتبرأت عن ولائهم) علىٰ صيغة المتكلم معطوف علىٰ الجواب أي لجعلت نفسي بريئة عن ولائهم بفتح الواو أي عن أن أكون عصبتهم وورائهم وحاصله متاركتهم بالكلية وعدم النظر إلىٰ ما في أيديهم.

(ومن وجد لغة العلم والعمل به قلما يرغب فيما عند الناس) أي تصير رغبته فيما عند الناس قليلة ويمكن أن يراد بالقلة العدم أي لا يرغب فيما عند الناس لأنه لو وجد لذة العلم لكان العلم أعز الأشياء وألذها عنده فلا يطلب شيئًا آخر غيره.

أنشدنا الشيخ الإمام الأجل الأستاذ قوام الدين حماد بن إبراهيم بن إسماعيل الصفار الأنصاري إملاءً لأبي حنيفة رحمه الله تعالىٰ شعرًا:

مَـــنْ طَلَـــبَ العِلْـــمَ لِلْمَعَـــادِ فَـــازَ بِفَـــضْلٍ مِـــنَ الرَّشَـــادِ

فَيَـــا لَخُـــسْرَانِ طَالِبِيـــهِ لِنَيْـــلِ فَـــضْلٍ مِـــنَ العِبَـــادِ

اللهم إلا إذا طلب الجاه للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتنفيذ الحقِّ، وإعزاز الدين لا لنفسه وهواه، فيجوز ذلك بقدر ما يقيم به الأمر بالمعروف

(أنشدنا الشيخ الإمام الأجل الأستاذ قوام الدين) أي ما يقوم به الدين (حماد) عطف بيان (ابن إبراهيم بن إسماعيل الصفار الأنصاري) رحمة الله تعالىٰ عليهم.

(إملاء لأبي حنيفة) الإملاء الكتاب وهو هاهنا بمعنىٰ المكتوب، نصب علىٰ أنه مفعول أنشدنا أي قرأ علينا الشعر المكتوب لأبي حنيفة (رحمه الله تعالىٰ من طلب العلم للمعاد) أي للآخرة يعني من طلب العلم لتحصيل ثواب الآخرة.

(فاز بفضل من الرشاد) الفوز الظفر ومن الرشاد في موضع الجر علىٰ أنه صفة فضل وهو السداد علىٰ الدين القويم يعني ظفر بالرشاد الذي هو الفضل والشرف وكيف لا يكون فضلًا وهو الموصل إلىٰ المراتب العالية في الجنات العالية.

(فيالخسران طالبيه) جواب شرط محذوف ويا حرف نداء والمناديٰ محذوف ولخسران متعلق بفعل محذوف يعني إذا كان طالب العلم للمعاد سببًا لتحصيل الفوز بالرشاد فيا قوم انظروا لخسران طلبة العلم.

(لنيل فضل من العباد) الجار والمجرور أعني قوله لنيل متعلق بطالبيه أي لأن ينال بفضل وشرف من جهة العباد من إقبالهم وإعطائهم شيئًا من حطام الدنيا فأنىٰ يعادل هذا بذلك.

(وتنفيذ الحق) أي جعل الحق نافذًا (وإعزاز الدين) أي جعل الدين عزيزًا غالبًا (لا لنفسه وهواه) أي لا لأجل تحصيل مراد النفس (فيجوز ذلك) أي طلب الجاه بالعلم.

(بقدر ما يقيم به الأمر بالمعروف) أي يجوز طلب المقدار الذي يقدر أن يقيم به الأمر بالمعروف فإن هذا الطالب وإن كان في الظاهر لأجل الجاه لكنه في الحقيقة لأجل تحصيل المعاد بسبب إقامة الأمر بالمعروف.

والنهي عن المنكر، وينبغي لطالب العلم أن يتفكر في ذلك فإنه يتعلم العلم بجهد كثير فلا يصرفه إلى الدنيا الحقيرة القليلة الفانية:

هِـيَ الـدُّنْيَا أَقَـلُّ مِـنَ القَلِيـلِ وَعَاشِـقُهَا أَذَلُّ مِـنَ الـذَّلِيلِ
تُـصِمُّ بِـسِحْرِهَا قَوْمًـا وَتُعْمِـي فَهُـمْ مُتَحَـيِّرُونَ بِـلَا دَلِيـلِ

وينبغي لأهل العلم ألا يذل نفسه بالطمع في غير مطمعٍ،

(والنهي عن المنكر) اللذين هما من أشرف العبادات (وينبغي لطالب العلم أن يتفكر في ذلك) أي في طلب العلم بأنه بأي مشقة اكتسبه وبأي جهد حصله وأشار إلى هذا بقوله.

(فإنه يتعلم العلم بجهد كثير) الجهد بالفتح المشقة والجهد بالضم والفتح أيضًا الطاقة والمراد هنا الأول (فلا يصرفه) أي العلم (إلى الدنيا) تأنيث أدنى وهو من الدنو أو من الدناءة.

(الحقيرة القليلة الفانية هي الدنيا) الضمير ضمير القصة ويحسن تأنيث هذا الضمير إذا كان العمدة في الجملة المفسرة مؤنثًا وهاهنا كذلك وهو مبتدأ والدنيا مبتدأ ثان.

(أقل من القليل) خبر مبتدأ ثان والجملة خبر للمبتدأ الأول وهذا كناية عن غاية القلة (وعاشقها أذل من الذليل) أي من جنس الذليل وهذا أيضًا كناية عن تمام الذلة (تصم) أي تجعله ذا صمم.

(بسحرها) أي زخافها وشهواتها التي تشبه بالسحر في استجلاب القلوب (قومًا) يتبعونها ويميلون إلى زخافها ولذائذها أي تجعلهم معرضين عن سماع الحق وقبوله (وتعمي) أي تجعلهم عميانًا غير مبصرين الحق.

(فهم) إذا كانوا صمًّا وعميًا (متحيرون بلا دليل) يهديهم أي لا يهتدون إلى طريق الحق والسداد بل يتيهون في تيه الحيرة والعناد كالرجل الذي له عمى حقيقي وصمم حقيقي كيف يتحرى في ذهابه ومجيئه فلا يدري أين يذهب وأين يجيء فيتحير.

(وينبغي لأهل العلم ألَّا يذل) من الإذلال (نفسه) مفعول يذل أي لا يجعل نفسه ذليلة (بالطمع في غير مطمع) أي غير محل الطمع وهذا احتراز عن الطمع في محل الطمع

ويتحرز عما فيه مذلة العلم وأهله، ويكون متواضعًا، والتواضع بين التكبر والمذلة والعفة كذلك، يُعرف ذلك في كتاب الأخلاق.

أنشد الشيخ الإمام الأجل الأستاذ ركن الإسلام المعروف بالأديب المختار، شعرًا لنفسه:

كالطمع إلى العلم وتحصيله فإن إذلال النفس بهذا الطمع جائز لا ضرر فيه بل هو عين العزة في الحقيقة.

(ويتحرز) منصوب معطوف على أن لا يذل (عما فيه مذلة العلم وأهله) مجرور على أنه معطوف على العلم بأن يضع نفسه في مواضع الابتذال والرذالة فإن التحرز عن مثل هذا الصنع لازم لئلا يلزم تحقير العلم وأهله.

(ويكون) منصوب معطوف على ما قبله والضمير المستكن فيه اسم رجع إلى أهل العلم (متواضعًا) خبره وفسر التواضع بقوله (والتواضع بين التكبر والمذلة) أي التواضع حالة متوسطة بين التكبر الذي هو من الصفات المحرمة لأنها صفة مختصة بذات الله تعالى لأنه تعالى قال في الحديث القدسي: «العظمة إزاري والكبرياء ردائي» أي صفتان مختصتان بذاتي لا يليقان بغيري، وبين المذلة التي هي أيضًا من الصفات المحرمة؛ لأن ذل النفس حرام والصفة المقبولة التي كانت بينهما هو التواضع لأن خير الأمور أوسطها.

(والعفة) أي التحرز عن الحرام (كذلك) أي مثل التواضع في أنها بين التكبر والمذلة لأن الرجل الضعيف لا يتكبر عن طلب الحلال ولا يذل نفسه بطلب الحرام، ويجوز أن يكون معنى قوله كذلك أي مثل التواضع في أنها من الصفات اللازمة لطلب العلم، و.

(يعرف ذلك) أي كونها كذلك (في كتاب الأخلاق. أنشد الشيخ الإمام الأجل الأستاذ ركن الإسلام المعروف بالأديب المختار شعرًا) مفعول أنشد (لنفسه) أي شعرًا كائنًا لنفسه وهو هذا.

إِنَّ التَّوَاضُـعَ مِـنْ خِـصَالِ المُتَّقِـي   وَبِـهِ التَّقِـيُّ إِلَىٰ المَعَـالِي يَرْتَقِـي
وَمِنَ العَجَائِبِ عُجْبُ مَنْ هُوَ جَاهِلٌ   فِي حَالِـهِ أَهُـوَ الـسَّعِيدُ أَمِ الـشَّقِي
أَمْ كَيْـفَ يُخْـتَمُ عُمْـرُهُ أَوْ رُوحُـهُ   يَـوْمَ النَّـوَىٰ مُتَـسَفِّلٌ أَوْ مُرْتَقِـي

(إن التواضع من خصال المتقي) أي التواضع من صفات المتقي لله تعالىٰ (وبه) أي بالتواضع متعلق بيرتقي قدم عليه اهتمامًا ومحافظة للوزن (التقي) فعيل بمعنىٰ الفاعل مرفوع علىٰ أنه مبتدأ ويرتقي خبره.

(إلىٰ المعالي) أي المقامات العالية (يرتقي) أي يصعد ويصل إليها والجار والمجرور متعلق به قدم عليه أيضًا لما مر، ومحصل المعنىٰ أن التواضع من خصال المتقين وبسببه يصلون إلىٰ الدرجات الرفيعة العالية لقوله عليه الصلاة والسلام: «**من تواضع رفعه الله ومن تكبر وضعه الله**».

(ومن العجائب) خبر مقدم، (عجب) مبتدأ مؤخر ومصدر مضاف إلىٰ فاعله وهو (من هو جاهل) من موصول والجملة التي بعده صلته (في حاله) متعلق بقوله جاهل (أهو) الهمزة للاستفهام وهو مبتدأ.

(السعيد) خبره (أم الشقي) عطف علىٰ السعيد يعني من العجائب حال الشخص الذي كان جاهلًا بحاله فلا يدري أهو سعيد من السعداء أم هو شقي من الأشقياء ومع هذا كان مغرورًا ومعجبًا بحاله فمن كان حاله هكذا فاللائق به أن يكون متفكرًا في حاله ويخاف من سوء الخاتمة ويكون بين الخوف والرجاء.

(أم كيف يختم عمره) أي لا يدري كيف يختم عمره، أيختم علىٰ الإيمان أم يختم علىٰ الكفر نعوذ بالله تعالىٰ (أو روحه يوم النوىٰ) أي يوم الهلاك وهو يوم الوفاة وهو منصوب علىٰ أنه مفعول فيه ليختم.

(متسفل أو مرتقي) خبر مبتدأ محذوف والجملة بيان لما قبله والتقدير هو أي الروح متسفل أي نازل في أسفل سافلين أو مرتقي أي صاعد إلىٰ أعلىٰ عليين، يعني لا يدري كيف يختم روحه أيختم علىٰ الإيمان فيرتقي إلىٰ أعلىٰ عليين وهو مقام المؤمنين أم علىٰ خلافه نعوذ بالله تعالىٰ فينزل إلىٰ أسفل سافلين.

وَالكِبْرِيَـــاءُ لِرَبِّنَـــا صِـــفَةٌ بِـــهِ مَخْـــصُوصَةٌ فَتَجَنَّبَنْهَـــا وَاتَّقِـــي

قال أبو حنيفة رحمه الله لأصحابه: عظموا عمائمكم ووسعوا أكمامكم، وإنما قال ذلك لئلا يُسْتَخَفُّ بالعلم وأهله. وينبغي لطالب العلم أن يحصل كتاب الوصية التي كتبها أبو حنيفة ليوسف بن خالد السمتي عند الرجوع إلى أهله يجده من يطلبه، وكان أستاذنا الشيخ الإمام برهان الأئمة علي بن أبي بكر- قدس الله روحه العزيز- أمرني بكتابته عند الرجوع إلى بلدي وكتبته، ولابد للمدرس والمفتي في معاملات الناس منه.

(والكبرياء) الكائن (لربنا صفة) خبر مبتدأ (به) متعلق بقوله (مخصوصة) أي صفة مخصوصة بذات الباري عز شأنه فإذا كان كذلك (فتجنبها) أمر حاضر فتبعد وانقطع عن تلك الصفة.

(واتقي) أمر حاضر أيضًا أعيدت ياؤه المحذوفة لضرورة القافية أي اتق عن الاتصاف بتلك الصفة لأنها صفة مخصوصة بذات الله تعالى لا يشاركه فيها غيره لما سبق من الحديث (قال أبو حنيفة رحمه الله لأصحابه) أي خاطبهم يدل عليه استعماله باللام.

(عظموا عمائمكم) جمع عمامة (ووسعوا أكمامكم) جمع كم بضم الكاف وتشديد الميم وهو بالفارسية آستين (وإنما قال ذلك) أي هذا الكلام (لئلا يستخف بالعلم وأهله) الجار والمجرور قائم مقام الفاعل لقوله يستخف أي لئلا يجعل العلم وأهله مهانًا مستحقرًا لأن نظر الناس إلى اللباس.

(وينبغي لطالب العلم أن يحصل) من التحصيل (كتاب الوصية التي كتبها أبو حنيفة ليوسف بن خالد السمتي) أي المنسوب إلى السمت وهو من علماء الحديث (عند الرجوع) من صحبة أبي حنيفة.

(إلى أهله) وعياله (يجده من يطلبه) استئناف كأنه قيل أين يوجد فقال يجده من يطلبه للخبر المشهور من طلب شيئًا وجدَّ وجد (وكان أستاذنا الشيخ الإمام برهان الأئمة علي بن أبي بكر) عطف بيان.

(قدس الله روحه العزيز أمرني بكتابته عند الرجوع إلى بلدي وكتبته) امتثالًا لأمره (ولابد للمدرس والمفتي في معاملات الناس)، قوله: في معاملات متعلق بالمفتي (منه) متعلق بقوله لابد أي من كتاب الوصية التي كتبها أبو حنيفة ليوسف بن خالد وكان في نفسه كتابًا لطيفًا جامعًا لفوائد جمة.

فصل

في اختيار العلم والأستاذ والشريك والثبات عليه

ينبغي لطالب العلم أن يختار من كل علم أحسنه وما يحتاج إليه في أمر دينه في الحال، ثم ما يحتاج إليه في المآل، ويقدم علم التوحيد، ويعرف الله تعالىٰ بالدليل؛ فإن إيمان المقلد وإن كان صحيحًا عندنا لكن يكون آثمًا بترك الاستدلال، ويختار العتيق دون المُحْدَثات.

(فصل في اختيار العلم والأستاذ والشريك والثبات عليه)

أي علىٰ العلم (ينبغي لطالب العلم أن يختار من كل علم أحسنه) منصوب علىٰ أنه مفعول يختار وإلىٰ تفسير الأحسن أشار بقوله.

(وما يحتاج إليه في أمر دينه في الحال) أي العلم بالفروض بالفروض التي تفرض عليه في الحال بل في جميع الأحوال مثل الصلاة (ثم ما يحتاج إليه في المآل) أي في الزمان الآتي من العلم بالفروض التي ما فرضت عليه في الحال لفقدان شروطها مثل الحج والزكاة لمن لم يقدر عليهما حالًا.

(ويقدم علم التوحيد) معطوف علىٰ يختار أي وينبغي لطالب العلم أن يقدم علم التوحيد الذي هو أساس سائر العلوم عليها (ويعرف الله تعالىٰ بالدليل) أي ينبغي أيضًا أن يعرف الله تعالىٰ جل وعلا بالدليل أي بالاستدلال من الأثر إلىٰ المؤثر ولا يقلد.

(فإن إيمان المقلد) أي الرجل الذي لا يكون مستدلًا بل يكون مقلدًا بآبائه في الإيمان (وإن كان صحيحًا عندنا) خلافًا للمعتزلة فإن عندهم لا يصح إيمان المقلد ودلائل الفريقين مذكورة في مواضعها.

(لكن يكون آثمًا بترك الاستدلال) لأن الله تعالىٰ أعطىٰ نعمة العقل للإنسان ليستدل به علىٰ وجوده ووحدته وأمهات أوصافه، فلما لم يستدل به ما كان مؤديًا شكر نعمة العقل فبسبب كفران النعمة كان آثمًا.

(ويختار) منصوب معطوف علىٰ ما قبله أي ينبغي لطالب العلم أن يختار (العتيق) أي القديم وهو علم النبي ﷺ وأصحابه والتابعين وتابع التابعين (دون المحدثات) أي

قالوا: عليكم بالعتيق، وإياكم والمحدثات، وإياك أن تشتغل بهذا الجدل الذي ظهر بعد انقراض الأكابر من العلماء فإنه يُبعد الطالب عن الفقه، ويُضيع العمر، ويُورث الوحشة والعداوة، وهو من أشراط الساعة، وارتفاع العلم والفقه، كذا ورد في الحديث.

وأما اختيار الأستاذ فينبغي أن يختار الأعلم والأورع والأسن، كما اختار أبو حنيفة

العلوم التي لم توجد في زمانهم بل أحدثت بعدهم من العصور كعلم المنطق والحكمة وعلم الخلاف.

(قالوا) أي العلماء (عليكم) أي الزموا (بالعتيق) أي العلم القديم (وإياكم والمحدثات) هذا من باب التحذير أي بعدوا أنفسكم من المحدثات والمحدثات من أنفسكم، (وإياك) أي اتق هذا كلام المصنف لا مقول قالوا.

(أن تشتغل بهذا الجدل) أي بعلم الجدل والخلاف (الذي ظهر بعد انقراض الأكابر) أي بعد انقطاعهم (من العلماء) أي الكائنين من العلماء (فإنه) تعليل للتحذير (يبعد الطالب عن الفقه) الذي هو أشرف العلوم.

(ويضيع العمر) لصرفه إلى ما لا يهمه (ويورث) أي يعطي (الوحشة والعداوة) بسبب الجدل بالمباحثين وكل ذلك أمر غير مقبول فمورثه أيضًا غير مقبول (وهو) أي والحال أن الاشتغال بالجدل.

(من أشراط الساعة) الأشراط جمع شرط بالتحريك وهو العلامة، والساعة القيامة وإطلاقها عليها إما لوقوعها بغتة أو لسرعة حسابها أو لأنها على طولها عند الله تعالى كساعة فهي من الأسماء الغالبة.

(وارتفاع العلم) مجرور معطوف على الساعة أي وهي من أشراط الساعة أو من أشراط ارتفاع العلم، (والفقه كذا ورد في الحديث، وأما اختيار الأستاذ فينبغي) أي فمقول في حقه ينبغي (أن يختار) أي طالب العلم.

(الأعلم) أي الأستاذ الذي له زيادة علم (والأورع) أي الذي له زيادة ورع أي تحرز عن الحرام (والأسن) أي الذي له زيادة سن وكبر (كما اختار أبو حنيفة) أي اختر مثل اختيار أبي حنيفة.

حينئذ حماد بن أبي سليمان بعد التأمل والتفكر، وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالىٰ: وجدته شيخًا وقورًا حليمًا صبورًا، وقال: ثَبَتُّ عند حماد بن أبي سليمان فَنَبَتُّ. وقال: سمعت حكيمًا من حكماءِ سمرقند يقول: إن واحدًا من طلبة العلم شاورني في طلب العلم، وكان عزم علىٰ الذهاب إلىٰ بخارىٰ لطلب العلم، وهكذا ينبغي أن يشاور في كل أمرٍ، فإن الله تعالىٰ أمر رسوله ﷺ بالمشاورة في الأمور، ولم يكن أحد أفطن منه، ومع ذلك أُمِر بالمشاورة وكان يشاور أصحابه في جميع الأمور حتىٰ حوائج البيت.

(حينئذ حماد بن أبي سليمان بعد التأمل والتفكر) في اختياره أستاذًا هو أعلم علماء زمانه وأورعهم وأسنهم (وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالىٰ وجدته) أي حماد بن أبي سليمان.

(شيخًا وقورًا) أي رزينًا (حليمًا صبورًا وقال ثبت) علىٰ صيغة المتكلم (عند حماد بن أبي سليمان فنبت) علىٰ صيغة المتكلم أيضًا أي كنت ثابتًا عند أستاذي حماد بن أبي سليمان وما تركت صحبته أبدًا فصرت نابتًا ناميًا كما ينمو النبات حينًا فحينًا حتىٰ بلغت إلىٰ هذه المرتبة وهي مرتبة الاجتهاد.

(وقال) أي أبو حنيفة (سمعت حكيمًا) أي سمعت قول عاقل لأن السمع لا يتعلق بالذات بل يتعلق بالسموع (من حكماء سمرقند يقول إن واحدًا من طلبة العلم شاورني في طلب العلم وكان)أي وقد كان.

(عزم) أي قصد (علىٰ الذهاب إلىٰ بخارىٰ لطلب العلم وهكذا ينبغي أن يشاور في كل أمر)، وهذا الكلام إلىٰ قوله قال الحكيم كلام المصنف لا مقول قال أتىٰ به في أثناء الحكاية لبيان وجوب المشاورة في جميع الأمور.

(فإن الله تعالىٰ أمر رسوله ﷺ بالمشاورة في الأمور) حيث قال الله تعالىٰ ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] استظهارًا برأيهم وتطييبًا لنفوسهم وتمهيدًا بسنية المشاورة للأمة هذا علىٰ تقدير أن يفسر الأمر بما يصح أن يشاور فيه علىٰ الإطلاق أما علىٰ تقدير أن يفسر بالحرب فلا يصح به الاستدلال في سنة المشاورة في جميع الأمور.

(ولم يكن أحد أفطن منه) أي والحال أنه لم يكن أحد من العقلاء أذكىٰ وأعقل منه (ومع ذلك أمر بالمشاورة وكان يشاور أصحابه في جميع الأمور) أي عادته هكذا (حتىٰ حوائج البيت) حتىٰ حرف عطف والحوائج مجرور علىٰ أنه معطوف علىٰ جميع الأمور.

قال علي: ما هلك امرؤ عن مشورة، قيل: رجل ونصف رجل ولا شيء، فالرجل من لهُ رأي صائب ويشاور، ونصف رجل من له رأي صائب ولكن لا يشاور أو يشاور ولكن لا رأي له، ولا شيء من لا رأي له ولا يشاور.

قال جعفر الصادق لسفيان الثوري رحمه الله: شاور في أمرك مع الذين يخشون الله تعالى.

وطلب العلم من أعلى الأمور وأصعبها؛ فكان المشاورة فيه أهم وأوجب،

(قال علي) كرم الله وجهه (ما هلك امرؤ) ما نافية وامرؤ فاعل هلك (عن مشورة) أي بعد مشورة (قيل رجل) خبر مبتدأ محذوف أي أفراد الإنسان رجل وامرؤ تام.

(ونصف رجل ولا شيء فالرجل من له رأي صائب) أي فكر ذو صواب مطابق للحق (ويشاور) مع العقلاء اقتداء بسنة الرسول ﷺ واهتمامًا في أمره (ونصف رجل من له رأي صائب ولكن لا يشاور أو يشاور ولكن لا رأي له) أي لا رأي صائب له بقرينة السياق فتامية الرجل باعتبار اجتماع الأمرين الرأي الصائب والمشورة وبتنصيف الأمرين ينتصف الرجل.

(ولا شيء من لا رأي له ولا يشاور) لانتفاء الأمرين معًا اللذين هما مدار رجولية الإنسان فبانتفاء السبب انتفى المسبب (قال جعفر الصادق لسفيان الثوري رحمه الله شاور) أمر من المشاورة.

(في أمرك مع الذين يخشون الله تعالى) أي العلماء لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] فإنهم إذا استشيروا يلقنون بالخير ويرشدون إلى السداد والصلاح بموجب علمهم.

(وطلب العلم) هذا من كلام المصنف مربوط بقوله وهكذا ينبغي في كل أمر أي والحال أن طلب العمل (من أعلى الأمور وأصعبها فكان المشاورة فيه أهم وأوجب) من سائر الأمور.

قال الحكيم: إذا ذهبت إلىٰ بخارىٰ لا تعجل في الاختلاف إلىٰ الأئمة، وامكث شهرين حتىٰ تتأمل وتختار أستاذًا، فإنك إن ذهبت إلىٰ عالمٍ وبدأت بالسبق عنده ربما لا يعجبك درسيته فتتركه وتذهب إلىٰ آخر فلا يُبَارَكُ لك في التعلم، فتأمل في شهرين اختيار الأستاذ وشاور حتىٰ لا تحتاج إلىٰ تركه والإعراض عنه فتثبت عنده حتىٰ يكون تعلمك مُباركًا وتنتفع بعلمك كثيرًا.

واعلم بأن الصبر والثبات أصل كبير في جميع الأمور،

(قال الحكيم) هذا رجوع إلىٰ الحكاية التي حكاها أبو حنيفة عن الحكيم السمرقندي (إذا ذهبت) علىٰ صيغة المخاطب (إلىٰ بخارىٰ لا تعجل) نهي حاضر (في الاختلاف) أي في التردد.

(إلىٰ الأئمة) أي إلىٰ العلماء الذين كانوا مقتدىٰ الناس وأفضلهم (وامكث شهرين) أي واصبر شهرين وليس المراد من ذكر الشهرين تعيينهما بل المراد أنه لابد من المكث.

(حتىٰ تتأمل وتختار أستاذًا) سواء كان حصول ذلك التأمل والاختيار في الشهرين أو في الأقل أو في الأكثر (فإنك) تعليل لوجوب المكث (إن ذهبت إلىٰ عالم) لتتعلم منه.

(وبدأت بالسبق عنده ربما لا يعجبك) من الإعجاب (درسيته) بفتح الدال وكسر الراء وبكسرهما أي علمه وفضله وفي بعض النسخ درسه (فتتركه وتذهب إلىٰ آخر فلا يبارك لك في التعلم) لأنك بتركك إياه قد آذيته فبتأذيه لا يبارك لك في التعلم.

(فتأمل في شهرين اختيار الأستاذ وشاور حتىٰ لا تحتاج إلىٰ تركه) أي الأستاذ (والإعراض عنه فتثبت) منصوب بإضمار أن علىٰ أنه جواب للنفي (عنده) بكمال الثبات (حتىٰ يكون) منصوب بأن المقدرة.

(تعلمك مباركًا وتنتفع) معطوف علىٰ يكون (بعلمك كثيرًا) أي انتفاعًا كثيرًا (واعلم بأن الصبر والثبات أصل كبير) يبنىٰ عليه (في جميع الأمور) أي جميع الأمور تبنىٰ وترتب عليه.

ولكنه عزيز كما قيل:

لِكُـــلٍّ إِلَىٰ شَـــأْوِ العُـــلَا حَرَكَـــاتُ وَلَكِـــنْ عَزِيـــزٌ فِي الرِّجَـــالِ ثَبَـــاتُ

قيل: الشجاعة صبر ساعة، فينبغي لطالب العلم أن يثبت ويصبر علىٰ أستاذٍ، وعلىٰ كتابٍ حتىٰ لا يتركه أبتر، وعلىٰ فن حتىٰ لا يشتغل بفن آخر قبل أن يتقن الأول، وعلىٰ بلد حتىٰ لا ينتقل إلىٰ بلد آخر من غير ضرورة؛ فإن ذلك كله يفرق الأمور ويشغل القلب، ويضيع الأوقات، ويؤذي المعلم، وينبغي أن يصبر عما تريد نفسه وهواه،

(ولكنه عزيز) أي قليل (كما قيل لكل إلىٰ شأو العلا حركات) الشأو السبق أي لكل واحد حركات قلبية إلىٰ سبق العلم يعني يميل قلب كل أحد أن يسبق إلىٰ المراتب العالية فالجار والمجرور متعلق بحركات ولكنه قدم عليها لما مر.

(ولكن عزيز في الرجال ثبات) كلمة لكن مخففة وملغاة عن العمل ما بعدها، مبتدأ وخبر أي لكن العزيز أي القليل في طائفة الرجال الثبات من مبادئ الوصول إلىٰ العلا ووسائله فلذلك لا يصل أكثرهم إلىٰ العلا الذي يبنىٰ علىٰ الصبر والثبات ولهذا المعنىٰ قيل من ثبت نبت.

(قيل) في فضيلة الصبر (الشجاعة صبر ساعة) أي الشجاعة ليست بقوة البدن ولكنها صبر ساعة علىٰ المشاق والآلام (فينبغي لطالب العلم أن يثبت ويصبر علىٰ أستاذ) بالثبات عنده وعدم الإعراض عنه.

(وعلىٰ كتاب) إلىٰ أن يتمه (حتىٰ لا يتركه أبتر) حال من الضمير المفصول أي ناقصًا (وعلىٰ فن) من فنون العلم (حتىٰ لا يشتغل بفن آخر قبل أن يتقن الأول) أي قبل أن يحكم الفن الأول.

(وعلىٰ بلد) شرع في تحصيل العلم فيه (حتىٰ لا ينتقل إلىٰ بلد آخر من غير ضرورة) توجب الانتقال فإن كانت فلا بأس بالانتقال (فإن ذلك كله) بالنصب تأكيد ذلك يعني عدم إتمام الكتاب وعدم إتمام الفن والاشتغال بفن آخر والانتقال من بلد إلىٰ بلد آخر من غير ضرورة.

(يفرق الأمور ويشغل القلب ويضيع الأوقات ويؤذي المعلم وينبغي أن يصبر عما تريد نفسه وهواه) من اللذائذ النفسانية والشهوانية.

قال الشاعر:

إِنَّ الهَــوَىٰ لَهُــوَ الهَــوَانُ بِعَيْنِــهِ وَصَرِيـعُ كُــلِّ هَــوًىٰ صَرِيـعُ هَــوَانِ

ويصبر علىٰ المحنِ والبليَّات، قيل: خزائن المنىٰ علىٰ قناطير المحن، وأُنْشِدت– وقيل: إنه لعلي بن أبي طالبٍ كرم الله وجهه:

أَلَا لَا تَنَــالُ العِلْــمَ إِلَّا بِــسِتَّةٍ سَــأُنْبِيكَ عَــنْ مَجْمُوعِهَــا بِبَيَــانِ

ذَكَــاءٌ وَحِــرْصٌ وَاصْــطِبَارٌ وَبُلْغَــةٌ وَإِرْشَــادُ أُسْــتَاذٍ، وَطُــولُ زَمَــانِ

(قال الشاعر إن الهوىٰ لهو الهوان بعينه) يعني أن الهوىٰ والعشق لهو الحقارة والمذلة بعينهما بمعنىٰ أن هوىٰ النفس يوقع صاحبه في المذلة بارتكاب مرادات النفس التي تقتضي المذلة والحقارة ولكن حمل عليه الهوان وقيل إن الهوىٰ لهو الهوان ادعاء ومبالغة. (وصريع كل هوىٰ صريع هوان) مصروع كل هوىٰ ومغلوبه مصروع لكل الهوان والحقارة يعني أن من غلب عليه الهوىٰ وصرعه يغلب عليه الهوان والمذلة فيصير مستقبحًا ومستنكرًا، وهاهنا تقديم المبتدأ علىٰ الخبر واجب لكونهما متساويين.

(ويصبر) بالنصب معطوف علىٰ يصبر (علىٰ المحن) بكسر الميم وفتح الحاء جمع محنة (والبليات) التي ظهرت عليه في طريق العلم (قيل خزائن المنىٰ) جمع منية وهي المقصود.

(علىٰ قناطير المحن) والقناطير جمع قنطار بكسر القاف وهو المال الكثير إذا أطلق وإذا أضيف إلىٰ شيء فالكثير منه يعني أن خزائن المقاصد مشتملة علىٰ المحن الكثيرة فمن أراد أن يحصل المقاصد لابد له أن يصبر علىٰ المحن الكثيرة.

(وأنشدت) أي قرئت عليَّ هذه الأبيات التي تأتي فيها بعد (وقيل إنه لعليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه) هذه جملة معترضة أتت لبيان صاحب الشعر (ألا لا تنال العلم إلا بستة) ألا حرف تنبيه أي تنبه واعلم أنك لا تنال العلم ولا تصل إليه إلا بستة أشياء.

(سأنبيك) أي سأخبرك (عن مجموعها ببيان: ذكاء) مجرور علىٰ أنه بدل من ستة ويجوز الرفع والنصب أيضًا وهو سرعة الفطنة (وحرص) علىٰ تحصيله (واصطبار) علىٰ محنه وبلياته.

(وبلغة) بضم الباء وسكون اللام أي كفاية من العيش بحيث لا يحتاج في أمر الرزق إلىٰ الغير فإن الاحتياج يشوش القلب فلا يمكن تحصيل العلم (وإرشاد أستاذ) أي دلالة أستاذ علىٰ وجه الصواب. (وطول زمان) أي لابد من طول زمان حتىٰ يحصل العلم لأن مقدماته ومباديه كثيرة لا تحصل في أدنىٰ الزمان

وأما اختيار الشريك فينبغي أن يختار المُجِّدَ والورِعَ وصاحب الطبع المستقيم، والمتفهم ويفر من الكسلان، والمعطل، والمكثار، والمفسد، والفتان، قيل:

عَنِ المَرْءِ لَا تَسْأَلْ وسَلْ عَنْ قَرِينِهِ فَإِنَّ القَرِينَ بِالْمُقَارِنِ يَقْتَدِي
فَإِنْ كَانَ ذَا شَرٍّ فَجَنِّبْهُ سُرْعَةً وَإِنْ كَانَ ذَا خَيْرٍ فَقَارِنْهُ تَهْتَدِي

(وأما اختيار الشريك فينبغي أن يختار المجد) اسم فاعل من أجد يجد أي المقدم الساعي.

(والورع) بفتح الواو وكسر الراء صفة مشبهة أي المتعفف عن الحرام (وصاحب الطبع المستقيم والمتفهم ويفر) منصوب على أنه معطوف على يختار من الفرار (من الكسلان) صفة مشبهة من التكاسل.

(والمعطل) اسم مفعول بالفارسية بيكار (والمكثار) صفة مبالغة الفاعل من الكثرة أي كثير الكلام (والمفسد) أي أهل الفساد (والفتان) أي أهل الفتنة (قيل عن المرء لا تسل وسل قرينه) أي لا تسأل عن حال المرء بأنه صالح أو طالح وانظر قرينه ومصاحبه حتى تعلم أن حاله ماذا.

(فإن القرين بالمقارن يقتدي) أي يتبع بالمقارن في أحواله وأفعاله قوله بالمقارن متعلق بقوله يقتدي قدم عليه لرعاية القافية (فإن كان ذا شر فجنبه سرعة) استئناف سيق لبيان جواب سؤال كأنه قيل فماذا يفعل إذا اقترن بالقرين فأجيب بأنه إذا كان ذا شر وفساد فبعده عن نفسك بسرعة قبل أن يؤثر شره في ذاتك فتعمل بعمله فقوله سرعة منصوب بنزع الخافض وفي بعض النسخ فجانب أي باعد بسرعة.

(وإن كان ذا خير فقارنه تهتدي) قوله فقارنه أمر حاضر وتهتدي جوابه وإنما أتي بالياء والقياس أن يسقط ياؤه علامة للجزم رعاية للقافية يعني إذا كان القرين ذا خير فصاحبه لكي تهتدي لأن الصحبة مؤثرة فتؤثر فيك آثارها ومنافعها وفي بعض النسخ فقاربه والمعنى ظاهر.

وأُنشدت:

لَا تَـصْحَبِ الْكَسْلَانَ فِي حَالَاتِـهِ ... كَـمْ صَـالِحٍ بِفَـسَادِ آخَـرَ يَفْـسَدُ

عَـدْوَىٰ البَلِيـدِ إِلَىٰ الجَلِيـدِ سَرِيعَـةٌ ... كَـالجَمْرِ يُوضَـعُ فِي الرَّمَـادِ فَيَخْمَـدُ

وقال عليه الصلاة والسلام: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ الفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِه، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ» الحديث،

(وأنشدت) علىٰ صيغة المتكلم من الأفعال أي قرئ هذا الشعر عندي (لا تصحب الكسلان في حالاته) أي لا تقارن الكاسل في حالاته وأوقاته (كم صالح) كم خبرية أي صالح كثير.

(بفساد آخر) أي بفساد شخص آخر، والباء في بفساد آخر متعلق بقوله (يفسد) لأن الفساد يؤثر في وجوده بسبب الصحبة فيفسده (عدوىٰ البليد إلىٰ الجليد سريعة) العدوىٰ بفتح العين وسكون الدال السراية والبليد الأحمق الجليد قوي الفهم يعني سراية بلادة البليد إلىٰ العالم العاقل سريعة.

(كالجمر يوضع في الرماد فيخمد) أي كسرعة الجمر الذي يوضع في الرماد فيطفأ في عقبه فكما أن الجمر إذا وضع في الرماد صار فحمًا كذلك الجليد إذا اقترن بالبليد يصير بليدًا بسرعة بسبب الصحبة المؤثرة فالمضاف محذوف في كالجمر وجملة يوضع في الرماد صفة الجمر علىٰ طريقة مثل قوله تعالىٰ ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥].

(وقال عليه الصلاة والسلام كل مولود يولد علىٰ الفطرة) والفطرة الخلقة (فأبواه) مبتدأ مرفوع بالألف لأنه مثنىٰ وخبره (يهودانه) أي يجعلانه يهوديًّا (أو ينصرانه) أي يجعلانه نصرانيًّا.

(أو يمجسانه) أي يجعلان مجوسيًّا (الحديث) مرفوع علىٰ أنه فاعل فعل محذوف أي تم أو مضىٰ الحديث ويجوز أن يكون منصوبًا علىٰ أنه مفعول فعل محذوف أي اقرأ الحديث إلا أنا ما اطلعنا علىٰ بقية الحديث فثبت بهذا الحديث أن الصحبة مؤثرة وإلا فالخلقة التي خلق الله الناس عليها سالمة عن الفساد والشقاوة.

يقال في الحكمة بالفارسية:

يـا ربـد بـدتر بـوداز مـا ربـد	بحـق ذات بـاك الله الـصمد
يـا ربـد آردتـر آسـوي جحـيم	يـارنيكو كيرتـا يـا بي نعـيم

وقيل:

إِنْ كُنْتَ تَبْغِـي العِلْـمَ مِـنْ أَهْلِـهِ	أَوْ شَـاهِدًا يُخْـبِرُ عَـنْ غَائِـبِ
فَـاعْتَبِرِ الأَرْضَ بِأَسْـمَائِهَا	وَاعْتَـبِرِ الـصَّاحِبَ بِالـصَّاحِبِ

(يقال في الحكمة بالفارسية يا ربد بدتر بوداز ماربد) يعني أن صاحب السوء أسوأ من الحية السوء وأكثر منها ضررًا (بحق ذات باك الله الصمد) الباء للقسم أي بحق ذاته تعالىٰ وتقدس.

(يا ربد آردتر آسوي جحيم) أي صاحب السوء يأتي بك إلىٰ جانب الجحيم (يارنيكو كيرتا يابي نعيم) أي اتخذ الصاحب الصالح: تجد بسببه جنات النعيم (وقيل) في هذا المعنىٰ.

(إن كنت تبغي) أي تطلب (العلم من أهله، أو شاهدًا يخبر عن غائب) أي عما غاب عن علمك (فاعتبر الأرض بأسمائها) أي الأرض إذا كانت ذات زرع فاسمها الضيعة وإن كانت ذات أشجار فاسمها الجنينة وإن كانت ذات بقول وبطيخ فاسمها البستان وإن كانت خالية بل ذات شوك فهي الأرض السبخة، فإذا قال الرجل إن لي ضيعة يعرف أن له أرضًا ذات زرع، وإن قال إن لي جنينة يعرف أن له أرضًا ذات أشجار وأثمار، فاعتبار الأرضين التي كانت غائبة عن العيون ومعرفتها بأسمائها التي كانت بمنزلة الأرض الحاضرة وهي شاهدة عليها، أو فاعتبر الأرض مع أسمائها أي مع علائمها المسموعة كيف تخبر علائمها المسموعة التي بمنزلة الحاضر عن البلاد المسموعة التي هي غائبة عن الأبصار مثلًا لطف هوائها ووفور مائها ورخاء كلئها وكثرة فواكهها علامات دالة علىٰ أن تلك الأرض أرض لطيفة حسنة.

(واعتبر الصاحب بالصاحب) يعني كما أن اعتبار الأرض ومعرفتها بأسمائها كذلك يعتبر المصاحب ويعرف حاله بمعرفة حال مصاحبه إن عالمًا فعالم وإن جاهلًا فجاهل.

فصل

في تعظيم العلم وأهله

اعلم بأن طالب العلم لا ينال العلم ولا ينتفع به إلا بتعظيم العلم وأهله، وتعظيم الأستاذ وتوقيره، والتعظيم قيل: "ما وصل مَنْ وصل إلا بالحرمة، وما سقط مَنْ سقط إلا بترك الحرمة والتعظيم"، وقيل: الحرمة خير من الطاعة، ألا يرىٰ أن الإنسان لا يكفر بالمعصية، وإنما يكفر بترك الحرمة، ومن تعظيم العلم تعظيم المعلم.

قال علي كرم الله وجهه: أنا عَبْدُ مَنْ عَلَّمَني حرفًا واحدًا، إن شاء باع، وإن شاء أعتق وإن شاء استَرَقَّ، وقد أُنْشدت في ذلك:

(فصل في تعظيم العلم وأهله)

(اعلم بأن طالب العلم لا ينال العلم ولاينتفع به إلا بتعظيم العلم وأهله وتعظيم الأستاذ وتوقيره) عطف تفسير للتعظيم.

(قيل ما وصل من وصل) ما نافية ومن فاعل وصل وحذف المفعول للتعميم والمعنىٰ ما وصل الواصل مطلوبًا أي مطلوب كان (إلا بالحرمة) أي باحترام الأستاذ والعلم وغيرهما مما له مدخل في تحصيل المطلوب.

(وما سقط) ما نافية أيضًا (من سقط) أي ما سقط الساقط عن المراتب العالية (إلا بترك الحرمة والتعظيم وقيل الحرمة خير من الطاعة ألا يرىٰ أن الإنسان لا يكفر بالمعصية وإنما يكفر بترك الحرمة) بأن ترك حرمة أمر الله نهيه بأن استخفه واستهان به والاستخفاف والاستهانة كفر محض.

(ومن تعظيم العلم تعظيم المعلم) وأيد هذا المعنىٰ بقوله (قال علي كرم الله وجهه أنا عبد من علمني حرفًا واحدًا إن شاء باع وإن شاء أعتق وإن شاء استرق) أي جعلني رقيقًا وأسيرًا لأخدمه في بابه وهذا كمال التعظيم، وقد قال عليه الصلاة والسلام: من علم عبدًا آية من كتاب الله فهو مولاه، (وقد أنشدت) علىٰ صيغة المجهول المنشد أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه (في ذلك) أي في تعظيم المعلم.

رَأَيْتُ أَحَقَّ الحَقِّ حَقَّ المُعَلِّمِ وَأَوْجَبَهُ حِفْظًا عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمِ
لَقَدْ حَقَّ أَنْ يُهْدَىٰ إِلَيْهِ كَرَامَةً لِتَعْلِيمِ حَرْفٍ وَاحِدٍ أَلْفَ دِرْهَمِ

فإن من علمك حرفًا مما تحتاج إليه في الدين فهو أبوك في الدين، وكان أستاذنا الشيخ الإمام سديد الدين الشيرازي يقول: قال مشايخنا: من أراد أن يكون ابنه عالمًا فينبغي أن يراعي الغرباء من الفقهاء، ويكرمهم، ويعظمهم

(رأيت أحق الحق حق المعلم) الظاهر أن أحق مفعول ثان لرأيت لأنه صفة لكن قدم علىٰ المفعول الأول أي علمت أن حق المعلم أشد حقية من سائر الحقوق.

(وأوجبه) بالنصب معطوف علىٰ أحق الحق (حفظًا علىٰ كل مسلم) أي وعلمت أن حق العلم أشد وجوبًا حفظه علىٰ كل مسلم (لقد حق) اللام موطئة للقسم أي ثبت ووجب.

(أن يهدىٰ إليه) علىٰ صيغة المجهول من الإهداء (كرامة) تمييز أي من جهة الكرامة والتعظيم (لتعليم حرف واحد ألف درهم) قوله ألف درهم مرفوع علىٰ أنه قائم مقام الفاعل ليهدي.

(فإن من علمك) هذا تعليل لمضمون البيت (حرفًا مما تحتاج) أنت (إليه في الدين) أي في أمر الدين (فهو أبوك في الدين) فإنه روي عنه ﷺ أنه قال «خير الآباء من علمك» روي أنه قيل للإسكندر ذي القرنين لم تعظم أستاذك أكثر من أبيك، فقال ونعم ما قال لأن أبي أنزلني من السماء إلىٰ الأرض وأستاذي يرفعني من الأرض إلىٰ السماء انتهىٰ ووجه ما قال أن تعلق الروح بالبدن في أرحام الأمهات هو نزوله من عالم الملكوت إلىٰ عالم الكون والفساد والسبب في حدوث البدن هو الوالدان وأما الأستاذ فسبب لعروج الروح الإنساني من عالم الفناء إلىٰ عالم البقاء بسبب التكميل بالمعارف الربانية.

(وكان أستاذنا الشيخ الإمام سديد الدين الشيرازي يقول) خبر كان أي يقول دائمًا (قال مشايخنا) مقول يقول (من أراد أن يكون ابنه عالمًا فينبغي أن يراعي) علىٰ صيغة المعلوم. (الغرباء) جمع غريب (من الفقهاء) صفة الغرباء أي الكائنين من الفقهاء (ويكرمهم) بالنصب معطوف علىٰ أن يراعي (ويعظمهم) من التعظيم.

ويعطيهم شيئًا، فإن لم يكن ابنه عالمًا يكون حافده عالمًا.

ومن توقير المعلم ألا يمشي أمامهُ، ولا يجلس مكانه، ولا يبتدئ الكلام عنده إلا بإذنه، ولا يُكثر الكلام عنده إلا بإذنه، ولا يسأله شيئًا عند ملالته، ويراعي الوقت، ولا يدق الباب بل يصبر حتىٰ يخرج، فالحاصل أنه يطلب رضاه، ويجتنب سُخْطَه، ويمتثل أمره في غير معصية الله تعالىٰ؛ ولا طاعة للمخلوق في معصية الخالق.

ومن توقيره توقيرُ أولاده ومن يتعلق به، وكان أستاذنا شيخ الإسلام برهان الدين صاحب الهداية يحكي

(ويعطيهم شيئًا) أي يتصدق عليهم بشيء من ماله ولو كان قليلًا كما يفيده التنوين في شيء.

(فإن لم يكن ابنه عالمًا يكون حافده) أي ولد ولده (عالمًا) فظهر من هذا أن التعظيم والإكرام للعلماء أمر مقبول ومفيد لمثل هذه الفائدة (ومن توقير المعلم أن لا يمشي أمامه) أي قدامه.

(ولا يجلس مكانه ولا يبتدئ الكلام عنده) أي عند المعلم (إلا بإذنه) أي لا يبتدئ بالكلام عنده ملتبسًا بشيء من الأشياء إلا ملتبسًا بإذنه (ولا يكثر الكلام عنده ولا يسأله شيئًا عند ملالته ويراعي) أي يحفظ.

(الوقت) الذي عينه للدرس (ولا يدق الباب بل يصبر حتىٰ يخرج) الأستاذ فإن هذه الأشياء تخل بالتعظيم.

(فالحاصل أنه يطلب رضاه) أي رضا الأستاذ (ويجتنب سخطه) أي من سخطه.

(ويمتثل أمره في غير معصية الله تعالىٰ ولا طاعة للمخلوق) أي ولا طاعة جائزة للمخلوق (في معصية الخالق)أي في مادة يلزم إن أطاع المخلوق أن يعصي الخالق، وهذه الجملة بمنزلة التعليل لما سبق.

(ومن توقيره توقير أولاده ومن يتعلق به) كائنًا من كان سواء كان تعلقه بالنسب أو بالسبب (وكان أستاذنا شيخ الإسلام برهان الدين صاحب الهداية يحكي) خبر كان.

أن واحدًا من كبار أئمة بخارىٰ كان يجلس مجلس الدرس، وكان يقوم في خلال الدرس أحيانًا، وسألوه عنه ويقول: إن ابن أستاذي يلعب مع الصبيان في السكة، فإذا رأيته أقوم له تعظيمًا لأستاذي.

والقاضي الإمام فخر الدين الأرسابندي كان رئيس الأئمة بمرو، وكان السلطان يحترمه غاية الاحترام، وكان يقول: إنَّما وجدت في هذا المنصب بحرمة الأستاذ فإني كنت أخدم أستاذي القاضي الإمام أبا يزيد الدبوسي، وكنت أخدمه، وأطبخ طعامه، ولا آكل منه، والشيخ الإمام الأجل شمسُ الأئمة الحلواني قد كان خرج من بخارىٰ وسكن في بعض القرىٰ أيامًا بحادثةٍ وقعت لهُ، وقد زارته تلاميذه

(أن واحدًا من كبار أئمة بخارىٰ كان يجلس مجلس الدرس) أن عادته هكذا (وكان يقوم في خلال الدرس) أي في أواسطه (أحيانًا) أي أوقاتًا (وسألوه عنه ويقول إن ابن أستاذي يلعب مع الصبيان في السكة) أي في الطريق ويجيء أحيانًا إلىٰ باب المسجد.

(فإذا رأيته) أي ابن أستاذي (أقوم له تعظيمًا لأستاذي والقاضي الإمام فخر الدين الأرسابندي كان رئيس الأئمة بمرو وكان السلطان) أي سلطان زمانه (يحترمه غاية الاحترام وكان) أي القاضي.

(يقول إنما وجدت في هذا المنصب بحرمة الأستاذ فإني كنت أخدم أستاذي القاضي الإمام) منصوب علىٰ أنه صفة أستاذي (أبا يزيد) كنيته (الدبوسي) بفتح الدال وضم الباء الموحدة منصوب علىٰ أنه صفة نسبية لأستاذي يعني بخدمتي هذه وجدت هذا المنصب.

(وكنت أخدمه وأطبخ طعامه ولا آكل منه) يعني أن خدمتي وطبخي طعامه ليس لأجل الأكل والانتفاع بل لمجرد التعظيم والتوقير (والشيخ الإمام الأجل شمس الأئمة الحلواني) بضم الحاء المهملة وسكون اللام وآخره نون بعد ألف اسم لبلدة ونسبة شمس الأئمة إليها ويقال بهمزة بدل نون.

(قد كان خرج من بخارىٰ وسكن في بعض القرىٰ أيامًا بحادثة) أي بسبب حادثة (وقعت له) وأوجبت خروجه من البلدة إلىٰ القرىٰ (وقد زارته تلاميذه) جمع تلميذ فاعل زارت.

غير الشيخ الإمام القاضي أبي بكر الزرنجي، فقال له حين لقيه: لماذا لم تزرني؟ فقال: كنت مشغولًا بخدمة الوالدة، قال: ترزق العمر، ولا تُرزق رونق الدرس، وكان كذلك، فإنه كان يسكن في أكثر أوقاته في القرىٰ ولم ينتظم له الدرس، فمن تأذىٰ منه أستاذه يحرم بركة العلم، ولا ينتفع به إلا قليلًا:

إِنَّ الْمُعَلِّـــمَ وَالطَّبِيـــبَ كِلَاهُمَـــا لَا يَنْـــصَحَانِ إِذَا هُمَـــا لَمْ يُكْرَمَـــا
فَاصْـــبِرْ لِـدَائِكَ إِنْ جَفَـوْتَ طَبِيبَهَـا وَاقْنَـــعْ بِجَهْلِـكَ إِنْ جَفَـوْتَ مُعَلِّـمَا

(غير الشيخ الإمام) لفظ غير منصوب علىٰ الاستثناء (القاضي أبي بكر الزرنجي) بفتح الزاي المعجمة وفتح الراء المهملة ونون ساكنة بعدها اسم موضع ينسب إليه أبو بكر (فقال) أي شمس الأئمة.

(له) أي للقاضي (حين لقيه لماذا لم تزرني)أي لأي شيء لم تزرني (فقال) أي القاضي (كنت مشغولًا بخدمة الوالدة) فشغلي بخدمة الوالدة منعني عن زيارتك (قال) أي شمس الأئمة.

(ترزق العمر) علىٰ صيغة المبني للمفعول والعمر منصوب بنزع الخافض أي تجعل مرزوقًا بالعمر (ولا ترزق رونق الدرس) أي ولا تجعل مرزوقًا برونق الدرس وزينته.

(وكان كذلك فإنه كان يسكن في أكثر أوقاته في القرىٰ ولم ينتظم له الدرس) لأن الطالبين كثيرًا ما يوجدون في البلدان دون القرىٰ (فمن تأذىٰ منه أستاذه يحرم بركة العلم) أي من بركته.

(ولا ينتفع به إلا قليلًا) أي انتفاعًا قليلًا فانتصابه علىٰ المصدرية وقد قيل في ذلك:

(إن المعلـــم والطبيـــب كلاهمـــا لا ينـــصحان إذا همـــا لم يكرمـــا)

أي إن المعلم والطبيب لا يريدان الخير للمتعلم والمريض إذا لم يكونا مكرمين لأنهما إذا لم يكرما لم يستعطفا علىٰ المريض والمتعلم فلا يكونان ناصحين لهما.

(فاصبر لدائك إن جفوت) علىٰ صيغة الخطاب (طبيبها) الضمير راجع إلىٰ الداء المذكور حكمًا باعتبار المصيبة العارضة يعني إن جفوت طبيب مرضك فاصبر عليه ولا تضطرب منه. (واقنع بجهلك إن جفوت معلمًا) لأنك إن جفوت معلمك لا يهتم في التعليم فلا ينفعك تعليمه فتبقىٰ جاهلًا.

وحُكي أن الخليفة هارون الرشيد بعث ابنه إلى الأصمعي ليعلمه العلم والأدب، فرآه يومًا يتوضأ ويغسل رجله، وابن الخليفة يصب الماء على رجله، فعاتب الخليفة الأصمعي في ذلك فقال: إنما بعثته إليك لتعلمه وتؤدبهُ فلماذا لم تأمره بأن يصب الماء بإحدى يديه، ويغسل بالأخرى رجلك؟ .

ومن تعظيم العلم تعظيم الكتاب، فينبغي لطالب العلم ألا يأخذ الكتاب إلا بطهارة.

وحكي عن الشيخ الإمام شمس الأئمة الحلواني أنه قال: إنما نلت هذا العلم بالتعظيم، فإني ما أخذت الكاغد إلا بالطهارة، وأن الشيخ الإمام شمس الأئمة السرخسي كان مبطونًا، وكان يكرر في ليلة فتوضأ في تلك الليلة سبع عشرة مرة؛ لأنه كان لا يكرر إلا بالطهارة، هذا

(وحكي أن الخليفة) أي خليفة بغداد (هارون الرشيد بعث ابنه إلى الأصمعي) وهو شيخ من مشايخ العربية.

(ليعلمه العلم والأدب فرآه) أي الخليفة الأصمعي (يومًا يتوضأ ويغسل رجله وابن الخليفة) الواو للحال (يصب الماء على رجله فعاتب الخليفة الأصمعي في ذلك) أي في عمل ابنه هكذا.

(فقال) تفصيل للعتاب (إنما بعثته إليك لتعلمه وتؤدبه فلماذا) أي لأي شيء (لم تأمره بأن يصب الماء بإحدى يديه ويغسل بالأخرى) أي باليد الأخرى (رجلك) فثبت بهذا أن تعظيم الأستاذ لازم.

(ومن تعظيم العلم تعظيم الكتاب) الذي يطالعه ويقرأ منه (فينبغي) هذا شروع لبيان كيفية تعظيم الكتاب (لطالب العلم ألّا يأخذ الكتاب إلا بطهارة) أي بالوضوء (وحكي) هذا تأييد لهذا المعنى.

(عن الشيخ الإمام شمس الأئمة الحلواني أنه قال إنما نلت هذا العلم بالتعظيم فإني ما أخذت الكاغد إلا بالطهارة وأن الشيخ الإمام شمس الأئمة السرخسي كان مبطونًا) أي مبتلى بمرض البطن.

(وكان يكرر) أي درسه الذي يطالعه حذف للعلم به بقرينة المقام (في ليلة فتوضأ في تلك الليلة سبع عشرة مرة لأنه كان لا يكرر إلا بالطهارة هذا) أي بيان هذا ثابت.

لأن العلم نور، والوضوء نور، فيزداد نور العلم به.

ومن التعظيم الواجب ألا يمد الرجل إلى الكتاب، ويضع كتب التفسير فوق سائر الكتب تعظيمًا، ولا يضع على الكتاب شيئًا آخر، وكان أستاذنا شيخ الإسلام برهان الدين يحكي عن شيخ من المشايخ أن فقيهًا كان وضع المحبرة على الكتاب، فقال له بالفارسية: "برنيابي" وكان أستاذنا القاضي الأجل فخر الإسلام المعروف بقاضي خان يقول: إن لم يُرِد بذلك الاستخفاف فلا بأس بذلك، والأولى أن يحترز عنه، ومن التعظيم أن يجود كتابة الكتاب، ولا يُقَرْمِط، ويترك الحاشية التي يقرمط فيها إلا عند الضرورة،

(لأن العلم نور والوضوء نور فيزداد نور العلم به) أي بالوضوء لأن النور إذا انضم إلى النور يضاعف النور (ومن التعظيم الواجب أن لا يمد الرجل إلى الكتاب) لأن فيه نوع استحقار.

(ويضع كتب التفسير) منصوب بالعطف على أن لا يمد (فوق سائر الكتب تعظيمًا) لكتب التفسير (ولا يضع على الكتاب شيئًا آخر) من محبرة وغيرها لأن فيه استحقارًا لها.

(وكان أستاذنا شيخ الإسلام برهان الدين يحكي عن شيخ من المشايخ أن فقيهًا كان وضع المحبرة) أي وعاء المداد (على الكتاب فقال) أي الشيخ (له) أي للفقيه.

(بالفارسية برنيابي) لفظ برهاهنا بمعنى الفاكهة والمراد النفع أي لا تجد النفع من علمك (وكان أستاذنا القاضي الأجل فخر الإسلام المعروف بقاضي خان يقول إن لم يرد بذلك) أي بوضع المحبرة على الكتاب.

(الاستخفاف) أي عده خفيفًا حقيرًا (فلا بأس بذلك) أي بوضعها (والأولى أن يحترز عنه) لأن فيه إيهام الاستخفاف فالأولى الاحتراز عن مثله (ومن التعظيم) أي من التعظيم الواجب.

(أن يجود كتابة الكتاب) أي يجعله جيدًا غير رديء (ولا يقرمط) القرمطة رقة الكتابة أي لا يجعل الكتابة رقيقة غير جلية (ويترك الحاشية التي يقرمط فيها) غالبًا (إلا عند الضرورة) التي اقتضت أن يكتب أطراف الكتاب فيحنئذ يكتبها.

ورأىٰ أبو حنيفة كاتبًا يقرمط في الكتابة، فقال: لا تقرمط خطك، لأنك إن عشت تندمْ، وإن مت تُشتم، يعني إذا شخت وضعف بصرُك ندمت علىٰ ذلك الفعل.

وحكي عن الشيخ الإمام محمد مجد الدين الصرحكي رحمه الله تعالىٰ أنه قال: ما قرمطنا ندمنا، وما انتخبنا ندمنا، ومَا لم نُقابل ندمنا.

وينبغي أن يكون تقطيع الكتاب مربعًا فإنه تقطيع أبي حنيفة رحمه الله تعالىٰ، وهو أيسر إلىٰ الرفع والوضع والمطالعة، وينبغي ألا يكون في الكتاب شيء من الحمرة، فإنها صنيع الفلاسفة لا صنيع السلف، ومن مشايخنا من كره استعمال المركب الأحمر،

(ورأىٰ أبو حنيفة كاتبًا يقرمط في الكتابة فقال) أي أبو حنيفة رحمه الله تعالىٰ (لا تقرمط خطك لأنك إن عشت) بصيغة الخطاب (تندم) مجزوم أو مرفوع لكون شرطه ماضيًا.

(وإن مت) بضم الميم (تشتم) علىٰ صيغة المبني للمفعول يعني يشتمك من يقرأ منه (يعني) هذا التفسير من المصنف (إذا شخت) بكسر الشين وسكون الخاء علىٰ صيغة الخطاب أي صرت شيخًا.

(وضعف بصرك ندمت علىٰ ذلك الفعل) لأنك تتأمل من قراءته وقتئذ (وحكي عن الشيخ الإمام محمد مجد الدين الصرحكي رحمه الله تعالىٰ أنه قال ما قرمطنا ندمنا) ما موصولة في المواضع الثلاثة والعائد محذوف أي الذي قرمطناه ورققنا كتابته ندمناه أو مصدرية أي مدة دوام قرمطتنا في الكتابة ندمنا بأن نقول لماذا فعلنا هكذا.

(وما انتخبنا ندمنا) أي الذي انتخبناه ندمناه أو مدة دوام انتخابنا واختصارنا ندمنا لأنا كثيرًا ما نحتاج إلىٰ التفصيل (وما لم نقابل) أي الكتاب الذي لم نقابله مع كتاب آخر صحيح.

(ندمنا) لأن هذه الأشياء مضرة لمطالعتنا ومخلة بتفهم مقصودنا (وينبغي أن يكون تقطيع الكتاب) أي قطعه (مربعًا) لا مدورًا (فإنه تقطيع أبي حنيفة رحمه الله تعالىٰ) أي التقطيع الذي اختاره أبو حنيفة رحمه الله تعالىٰ.

(وهو أيسر) أي والحال أنه أيسر (إلىٰ الرفع) من محله (والوضع) في محله (والمطالعة وينبغي ألا يكون في الكتاب شيء من الحمرة فإنها صنيع الفلاسفة) أي مصنوعهم ومخترعهم (لا صنيع السلف ومن مشايخنا من كره استعمال المركب الأحمر) ولعله إنما كرهه للعلة السابقة أو لكراهة لونه.

ومن تعظيم العلم تعظيم الشركاء، ومن يتعلم منه، والتملق مذموم إلا في طلب العلم فإنه ينبغي أن يتملق لأستاذه وشركائه ليستفيد منهم، وينبغي لطالب العلم أن يستمع العلم والحكمة بالتعظيم والحرمة، وإن سمع مسألة واحدة وكلمة واحدة ألف مرةٍ، قيل: من لم يكن تعظيمه بعد ألف مرةٍ كتعظيمه في أول مرةٍ فليس بأهل العلم.

وينبغي لطالب العلم ألا يختار نوع علم بنفسه، بل يفوض أمره إلى الأستاذ، فإن الأستاذ قد حصل له التجارب في ذلك، وعرف ما ينبغي لكل أحدٍ، وما يليق بطبيعته،

(ومن تعظيم العلم تعظيم الشركاء) الذين شاركهم في طلب العلم والدرس (ومن يتعلم منه) يعني الأستاذ (والتملق) أي التودد والتلطف (مذموم) في جميع الأفعال والأحوال.

(إلا في طلب العلم فإنه) أي فإن طالب العلم (ينبغي أن يتملق لأستاذه وشركائه ليستفيد منهم وينبغي لطالب العلم أن يستمع العلم والحكمة بالتعظيم والحرمة) قال مجاهد الحكمة هي القرآن والعلم والفقه، وعن مقاتل أنها تفسر في القرآن بأربعة أوجه، فتارة بمواعظ القرآن وأخرى بما فيه من عجائب الأسرار ومرة بالعلم والفهم، وأخرى بالنبوة.

(وإن سمع) إن للوصل متسلخة عن معنى الشرط (مسألة واحدة وكلمة واحدة ألف مرة قيل من لم يكن تعظيمه بعد ألف مرة كتعظيمه في أول مرة فليس بأهل العلم) لأن العلم معظم ومشرف في جميع الأحوال والأوقات لا تفاوت بين وقت ووقت فمن قصر في تعظيمه في بعض الأحيان ولم يعظمه غاية التعظيم فهو ليس بأهل العلم؛ لأن من وجد لذة العلم وعلم قدره ورتبته لا يستطيع أن لا يعظمه.

(وينبغي لطالب العلم ألّا يختار نوع علم بنفسه) أي بذاته من غير أن يشاور أستاذه (بل يفوض أمره إلى الأستاذ فإن الأستاذ) أعاد ذكره تلذذًا وتبركًا (قد حصل له التجارب) جمع تجربة.

(في ذلك) أي في اختيار نوع العلم (وعرف ما ينبغي) من أنواع العلم (لكل أحد) من أفراد الطالبين (وما يليق بطبيعته) لأن الطبائع مختلفة فمن الطبائع ما يليق به الفقه ومن

وكان الشيخ الإمام الأجل الأستاذ شيخ الإسلام برهان الحق والدين رحمه الله تعالىٰ يقول: كان طَلَبَة العلم في الزمان الأول يفوضون أمورهم في التعلم إلىٰ أستاذهم، وكانوا يصلون إلىٰ مقصودهم ومرادهم، والآن يختارون بأنفسهم لا يحصل مقصودهم من العلم والفقه، وكان يحكىٰ أن محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله تعالىٰ كان بدأ بكتاب الصلاة علىٰ محمد بن الحسن، فقال له: اذهب وتعلم علم الحديث، لما رأىٰ أن ذلك العلم أليقُ بطبعه، وطلب علم الحديث فصار فيه مقدمًا علىٰ جميع أئمة الحديث،

الطبائع ما يليق به العلوم العربية إلىٰ غير ذلك فلابد من أستاذ يعلم طبيعة المتعلم ويعلم من أنواع العلوم ما يليق بطبيعته.

(وكان الشيخ الإمام الأجل الأستاذ شيخ الإسلام برهان الحق والدين رحمه الله تعالىٰ يقول) خبر كان **(كان طلبة العلم في الزمان الأول يفوضون)** وهو جعل الأمر في عهدة الغير من فوض إليه الأمر تفويضًا أي رده إليه وجعله في عهدته.

(أمورهم في التعلم إلىٰ أستاذهم) متعلق بيفوضون **(وكانوا يصلون إلىٰ مقصودهم ومرادهم والآن يختارون)** لفظة الآن ظرف منصوب علىٰ أنه مفعول فيه ليختارون وقدم عليه اهتمامًا.

(بأنفسهم) أي من غير انضمام رأي الأستاذ **(لا يحصل مقصودهم)** كائنًا **(من العلم والفقه)** لأنهم لا يدرون أي العلم أنفع بهم وأي علم يليق بطبيعتهم فلا يهتدون إلىٰ المطلوب.

(وكان يحكىٰ أن محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله تعالىٰ كان بدأ بكتاب الصلاة علىٰ محمد بن الحسن) الجار والمجرور أعني علىٰ محمد متعلق ببدأ علىٰ تضمين معنىٰ القراءة أي بدأ بكتاب الصلاة قارئًا علىٰ محمد بن الحسن المشتهر بالإمام الرباني من الأئمة الحنفية.

(فقال) أي محمد بن الحسن **(له)** أي محمد بن إسماعيل **(اذهب وتعلم علم الحديث لما رأىٰ أن ذلك العلم)** أي علم الحديث **(أليق بطبعه)** أي بطبع محمد البخاري.

(وطلب علم الحديث) عطف علىٰ مقدر أي فذهب وطلب **(فصار فيه)** أي في علم الحديث **(مقدمًا علىٰ جميع أئمة الحديث)** يعني صار مقتداهم ومقلدهم فجمع كتابًا معتبرًا بين الناس بعد كتاب الله تعالىٰ مسمىٰ بصحيح البخاري.

وينبغي لطالب العلم ألا يجلس قريبًا من الأستاذ عند السبق بغير ضرورةٍ، بل ينبغي أن يكون بينه وبين الأستاذ قدر القوس، فإنه أقرب إلى التعظيم.

وينبغي لطالب العلم أن يحترز عن الأخلاق الذميمة، فإنها كلاب معنوية، وقد قال رسول الله ﷺ: «لَا تَدْخُلُ المَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ صُورَةٌ أَوْ كَلْبٌ» وإنما يتعلم الإنسان بواسطة الملك، والأخلاق الذميمة تعرف في كتاب الأخلاق، وكتابنا هذا لا يحتمل بيانها، خصوصًا عن التكبر،

(وينبغي لطالب العلم أن لا يجلس قريبًا من الأستاذ) أي إليه لأن من إذا استعمل بالقرب يكون بمعنى إلى (عند السبق) بحذف المضاف أي عند تعلم السبق (بغير ضرورة) تقتضيه.

(بل ينبغي أن يكون بينه وبين الأستاذ قدر القوس) أي مقدار طول القوس (فإنه) أي كون ما بين المعلم والمتعلم مقدار القوس (أقرب إلى التعظيم) مما دون القوس.

(وينبغي لطالب العلم أن يحترز عن الأخلاق الذميمة) أي عن الأخلاق التي تعتبر في الشرع مذمومة (فإنها) أي تلك الأخلاق (كلاب معنوية) أي مشبهة بحسب المعنى بالكلاب الصورية فكما أن الكلاب تؤذي من يقاربها كذلك هذه الأخلاق تؤذي صاحبها ومن يقارن.

(وقد قال رسول الله ﷺ «لا تدخل الملائكة بيتًا فيه صورة أو كلب») فمن اتصف بتلك الأخلاق الذميمية التي هي كلاب معنوية تتأذى وتنفر منه الملائكة ولا يدخلون في بيته.

(وإنما يتعلم الإنسان بواسطة الملك) أي والحال أن ما يتعلم الإنسان بواسطة إلقاء الملائكة فظهر أن من كان صاحب الأخلاق الرديئة لا يملك نفائس العلوم (والأخلاق الذميمة تعرف في كتاب الأخلاق وكتابنا هذا لا يحتمل بيانها) لأن المقصود من تدوين هذا الكتاب بيان طرق التعليم والتعلم وبحث الأخلاق خارج عن هذا المقصود.

(خصوصًا) نصب على المصدرية أي أخص خصوصًا (عن التكبر) متعلق بقوله أن يحترز عن الأخلاق الذميمة خصوصًا عن التكبر ومع التكبر لا يحصل العلم لأن العلم يستدعي التواضع لمن تعلمه والتكبر ينافيه.

قيل:

العِلْمُ حَرْبٌ لِلْفَتَى المُتَعَالِي كَالسَّيْلِ حَرْبٌ لِلْمَكَانِ العَالِي

وقيل:

بِجَدٍّ لَا بِجِدٍّ كُلُّ مَجْدٍ فَهَلْ جَدٌّ بِلَا جِدٍّ بِمُجْدِ

فَكَمْ عَبْدٍ يَقُومُ مَقَامَ حُرٍّ وَكَمْ حُرٍّ يَقُومُ مَقَامَ عَبْدِ

***

(قيل العلم حرب للمتعالي كالسيل حرب للمكان العالي) الحرب بمعنى العدو وقال صاحب القاموس رجل حرب عدو محارب وإن لم يكن محاربًا انتهى، والمعنى أن العلم عدو للمتكبر المختال لا يجتمع معه بل إذا صادفه يزيله ويقلعه.

(وقيل بجَد لا بجِد كل مجد فهل جَد بلا جِد بمجد) الجد الأول في المصراع الأول بفتح الجيم بمعنى البخت والدولة والثاني بكسر الجيم بمعنى الجهد والسعي، وفي المصراع الثاني على هذا الترتيب أيضًا يعني كل المجد والعظمة بفضل الله وتقديره لا بالجد والسعي ولكن لابد من اقتران الطلب والسعي حتى يظهر فضل الله تعالى على جري عادة الله تعالى كما ينبئ عنه قوله فهل جد بلا جد بمجد استفهام إنكاري يعني لا يكون الجد بلا اقتران الجهد والسعي مجديًا.

(فكم عبد يقوم مقام حر) يعني كثير من العبيد يقومون مقام حر في الرتبة والشرف بفضل الله تعالى المقارن بالجهد والسعي (وكم حر يقوم مقام عبد) في الدناءة والرذالة لعدم جده وسعيه المستتبع لفضل الله تعالى.

فصل
في الجد والمواظبة والهمة

ثم لابد من الجد والمواظبة والملازمة لطالب العلم، وإليه الإشارة في القرآن قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾، من طلب شيئًا وَجَدَّ وَجَدَ، ومن قرع الباب ولَجَّ ولَجَ، وقيل: بقدر ما تتعنى تنال ما تتمنى، قيل: يحتاج في التعلم والتفقه إلى جد الثلاثة: المتعلم والأستاذ والأب إن كان في الأحياء، أنشدني الشيخ الإمام الأجل الأستاذ سديد الدين الشيرازي للشافعي:

(فصل في الجد والمواظبة)

أي المداومة (والهمة ثم لابد من الجد والمواظبة والملازمة لطالب العلم وإليه) أي إلى لزوم هذه المعاني لطالب العلم (الإشارة في القرآن) قوله الإشارة مبتدأ أي المشير أو ذو إشارة في القرآن.

(قوله تعالى) خبر مبتدأ (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) ومعناه على قول الفضيل والذين جاهدوا في طلب العلم لنهدينهم سبل العلم به، وقيل في هذا المعنى.

(من طلب شيئًا وجد) أي اجتهد وسعى سعيًا جميلًا (وجد) أي وجده وصادفه (ومن قرع الباب) أي باب المقصود (ولج) أي أقدم فيه (ولج) أي دخل فيه ووصل مقصوده.

(وقيل بقدر ما تتعنى) من العناء وما مصدرية أي بقدر إصابتك العناء (تنال ما تتمنى) أي تصل ما تتمناه وتبتغيه (قيل يحتاج في التعلم والتفقه إلى جد الثلاثة المتعلم) بالجر على أنه بدل من الثلاثة ويجوز الرفع والنصب أيضًا.

(والأستاذ والأب إن كان) أي الأب (في الأحياء) الأحياء جمع حي يعني إذا كان حيًّا لابد من جده وسعيه في تحصيل ابنه العلم (أنشدني) أي قرأ عليَّ شعرًا (الشيخ الإمام الأجل الأستاذ سديد الدين الشيرازي للشافعي) يعني شعرًا قاله الشافعي رحمه الله تعالى.

الجِـدُّ يُـدْنِي كُـلَّ أَمْـرٍ شَاسِـعٍ وَالجِـدُّ يَفْـتَحُ كُـلَّ بَـابٍ مُغْلَـقِ
وَأَحَـقُّ خَلْـقِ الله بَـالهَمِّ امْـرُؤٌ ذُو هِمَّـةٍ يُـبْلَىٰ بِعَـيْشٍ ضَـيِّقِ
وَمِـنَ الـدَّلِيلِ عَـلَىٰ القَـضَاءِ وَحُكْمِـهِ بُـؤْسُ اللَّبِيـبِ وَطِيـبُ عَـيْشِ الأَحْمَـقِ
لَكِـنَّ مَـنْ رُزِقَ الحِجَـا حُـرِمَ الغِنَـىٰ ضِـدَّان يَفْتَرِقَـانِ أَيَّ تَفَـرُّقِ

وأنشدت لغيره:

(الجد يدني) أي يقرب (كل أمر) نصب علىٰ أنه مفعول يدني (شاسع) أي بعيد (والجد يفتح كل باب مغلق) أي الاجتهاد يفتح أبواب المرادات التي أغلقت وصعب فتحها.

(وأحق خلق الله) أي أليق مخلوق لله تعالىٰ (بالهم) أي بأن يهم ويحزن له علىٰ أن الهم مصدر مجهول قوله وأحق مبتدأ خبره قوله (امرؤ) أي رجل (ذوهمة) أي قصد وسعي في المعارف والعلوم.

(يبلىٰ) أي يجعل مبتلىٰ (بعيش ضيق) يعني من صار مبتلىٰ بمضايقة العيش والألم والجاهلون في سعة ونعم فهو جدير بأن يغتم ويحزن له (ومن الدليل) خبر مقدم (علىٰ القضاء) أي قضاء الله تعالىٰ.

(وحكمه بؤس اللبيب) البؤس بضم الباء وسكون الهمزة الشدة وهو مرفوع علىٰ أنه مبتدأ مؤخر (وطيب عيش الأحمق) لأنه لو لم يكن بقضاء الله وحكمه بل بالنظر إلىٰ العلم والجهل لكان الأمر بالعكس وليس كذلك فظهر أنه من قضاء الله والمبني علىٰ الحكمة اللائقة الفائقة.

(لكن من رزق الحجا) أي العقل (حرم الغنىٰ) أي لكن من رزق العقل حرم من الغنىٰ وهذا حكم أكثري لا كلي لوجود الأغنياء في الصحابة والتابعين وغيرهم من العلماء.

(ضدان يفترقان أي تفرق) أي هما ضدان يفترقان تفرقًا أي تفرق قيل تفرقًا كاملًا فلفظ أي تفرق منصوب علىٰ المصدرية باعتبار دلالته علىٰ معنىٰ الكمال مثل مررت برجل أي رجل أي كامل في الرجولية. (وأنشدت) علىٰ صيغة المبني للمفعول للمتكلم وحده أي قرئ عليّ الشعر (لغيره) أي لغير الشافعي.

تَمَنَّيْتَ أَنْ تُمْسِي فَقِيهًا مُنَاظِرًا ... بِغَيْرِ عَنَاءٍ وَالجُنُونُ فُنُونُ
وَلَيْسَ اكْتِسَابُ المَالِ دُونَ مَشَقَّةٍ ... تَحَمَّلُهَا، فَالعِلْمُ كَيْفَ يَكُونُ

قال أبو الطيب:

وَلَمْ أَرَ فِي عُيُوبِ النَّاسِ عَيْبًا ... كَنَقْصِ القَادِرِينَ عَلَى التَّمَامِ

(تمنيت) علىٰ صيغة الخطاب. (أن تمسي فقيهًا مناظرًا) أي مباحثًا وتمسي هاهنا بمعنىٰ تصير لا بمعنىٰ اقتران مضمون الجملة بالمساء لأنه ليس بمراد بل المراد صيرورته فقيهًا في أي وقت كان.

(بغير عناء) متعلق بتمسي والعناء بفتح العين المهملة المشقة والتعب أي تمنيت أن تصير فقيهًا مباحثًا بغير مشقة وتعب فهذا نوع من الجنون (والجنون فنون) أي أنواع وإنما كان هذا جنونًا لأن علم الفقه من المطالب العالية والمطلوب إذا اشتد علوه اشتد عناؤه فمن أراد تحصيله بغير عناء فهو مجنون ومغبون.

(وليس اكتساب المال دون مشقة) أي متجاوزًا عن مشقة (تحملها) فعل مضارع من باب التفعل حذف إحدىٰ التاءين أي تتحملها والجملة صفة للمشقة وفي بعض النسخ تحملها علىٰ صيغة المخاطب.

(فالعلم كيف يكون) يعني اكتساب المال مع كونه رذيلًا خسيسًا لا يمكن بدون المشقة فكيف يحصل العلم بلا مشقة مع كونه أعلىٰ الأمور وأشرفها (قال أبو الطيب) شعرًا.

(ولم أر في عيوب الناس عيبًا) أي ما عرفت في عيوب الناس عيبًا فعيبًا مفعول لم أر ولا تقتضي المفعول الثاني لأن الرؤية هاهنا بمعنىٰ المعرفة فحينئذ لا يقتضي المفعول الثاني لما عرف في موضعه.

(كنقص القادرين علىٰ التمام) الكاف هاهنا في محل النصب علىٰ أنها صفة عيبًا أي مماثلًا لنقص الرجال الذين قدروا علىٰ إتمام شيء فلا يتمونه بل يبقونه ناقصًا مثلًا يقدرون علىٰ إتمام علم من العلوم لو أرادوا إتمامه لكن لا يريدونه فهذا عيب من العيوب ما رأيت مثله.

ولابد لطالب العلم من سهر الليالي، كما قال الشاعر:

بِقَدْرِ الكَدِّ تُكْتَسَبُ المَعَالِي فَمَنْ طَلَبَ العُلَا سَهِرَ اللَّيَالِي
تَرُومُ العِزَّ ثُمَّ تَنَامُ لَيْلًا يَغُوصُ البَحْرَ مَنْ طَلَبَ اللَّآلِي
عُلُوُّ الكَعْبِ بِالهِمَمِ العَوَالِي وَعِزُّ المَرْءِ فِي سَهَرِ اللَّيَالِي

(ولابد لطالب العلم من سهر الليالي كما قال الشاعر بقدر الكد) أي بقدر كدك ومشقتك فاللام عوض عن المضاف إليه أو تغني عن الإضافة على المذهبين والجار والمجرور متعلق بقوله (تكتسب المعالي) أي المقامات العالية.

(فمن طلب العلا سهر الليالي) يعني لما كان اكتساب المعالي بقدر كدك لزم لمن طلب العلا سهر الليالي أي التيقظ والانتباه في الليالي لأن السهر من المشاق التي تتحمل في طلب العلم.

(تروم العز ثم تنام ليلًا) أي تطلب أنت العز أي القوة والغلبة في العلوم وغيرها ثم تنام الليل كلًّا أو بعضًا فهما متنافيان لأن العز في العلوم وغيرها يحصل بالمجاهدات في أثناء الليالي وفي الأوقات الخالية عن الأغيار خصوصًا في وقت الأسحار ثم هاهنا للتراخي الرتبي لأن بين طلب العز والنوم في الليل بعدًا رتبيًّا.

(يغوص البحر) أي يخوض في البحر (من طلب اللآلي) جمع لؤلؤ يعني من أراد تحصيل العزة في العلوم يغوص بحر الشدائد ويستخرج اللآلي، المعارف كما أن من طلب اللآلي يغوص في البحر ويستخرج اللآلي وفي لفظ الغوص والبحر واللآلي من الاستعارات اللفظية ما لا يخفى.

(علو الكعب) كناية عن ارتفاع المحل وعلو القدر والكعب الشرف والمجد كذا في القاموس فعلى هذا علو الشرف والمجد كماله (بالهمم العوالي) الهمم جمع همة والعوالي جمع عالية يعني أن ارتفاع المنزلة والمقام وعلو القدر والشأن بالهمم العالية أي بالقصد الكامل والسعي الجميل.

(وعز المرء) أي قوته وغلبته (في سهر الليالي) إذ بالسهر لا يعطل الأوقات التي تعطل بالنوم وتصرف إلى تحصيل المعارف واكتساب الطاعات فيحصل عزة الدارين والسعادة السرمدية.

تَرَكْــتُ النَّــوْمَ رَبِّي فِي اللَّيَــالِي لِأَجْــلِ رِضَــاكَ يَــا مَــوْلَى المَــوَالِي
وَمَــنْ رَامَ العُــلَا مِــنْ غَــيْرِ كَــدٍّ أَضَــاعَ العُمْــرَ فِي طَلَــبِ المُحَــالِ
فَــوَفِّقْنِي إِلَى تَحْــصِيلِ عِلْـــمٍ وَبَلِّغْنِـــي إِلَى أَقْــصَى المَعَــالِي

وقيل: اتَّخِذ الليل جَمَلًا تُدْرك به أملًا.

قال المصنف وقد اتفق لي نظم في هذا المعنى:

مَــنْ شَــاءَ أَنْ يَحْتَــوِي آمَالَــهُ جُمَــلًا فَلْيَتَّخِــذْ لَيْلَــهُ فِي دَرْكِهَــا جَمَــلَا

(تركت النوم ربي) أي يا رب (في الليالي لأجل رضاك يا مولى الموالي) أي لأجل تحصيل رضاك يا مولى الموالي المجازية بالطاعات والعبادات في طول الليالي (ومن رام) أي طلب (العلا) علو القدر.

(من غير كد) أي من غير تعب (أضاع العمر في طلب المحال) وهو تحصيل العلو من غير كد (فوفقني إلى تحصيل علم) أي اجعلني يا رب موفقًا إلى تحصيله (وبلغني إلى أقصى المعالي) أي اجعلني بالغًا واصلًا إلى نهاية المطالب وغاية المآرب.

(وقيل اتخذ الليل جملًا تدرك به أملًا) قوله اتخذ أمر وتدرك مجزوم على أنه جوابه يعني اتخذ الليل إبلًا ومركبًا كي تدرك به أملك ومقصودك فكما أن الإبل إذا ركبته يوصلك إلى مقصودك كذلك الليل إذا سافرت فيه وتوجهت إلى تحصيل المقامات المعنوية يوصلك إليها.

(قال المصنف) وهو قائل هذا القول إلا أنه نزل نفسه منزلة الغائب (وقد اتفق لي نظم في هذا المعنى) هذا القول مقول لقال أي في إثبات أن الليل سبب الوصول إلى المطالب، شعر (من شاء أن يحتوي) أي يجمع.

(آماله) أي مقاصده منصوب على أنه مفعول يحتوي (جملًا) أي جميعًا (فليتخذ ليله) إضافة الليل إلى الضمير الراجع إلى الموصول لأدنى ملابسة باعتبار كونه زمانه (في دركها) أي في نيل الآمال (جملًا) أي إبلًا كما سبق.

أَقْلِلْ طَعَامَكَ كَيْ تَحْظَىٰ بِهِ سَهَرًا   إِنْ شِئْتَ يَا صَاحِبِي أَنْ تَبْلُغَ الكَمَلَا

وقيل: من أسهر نفسه بالليل فقد فَرَّح قلبه بالنهار، ولابد لطالب العلم من المواظبة علىٰ الدرس، والتكرار في أول الليل وآخره، فإن ما بين العشاءين ووقت السحر وقتٌ مبارك.

يَا طَالِبَ العِلْمِ بَاشِرِ الوَرَعَا   وَجَنِّبِ النَّوْمَ واحْذَرِ الشِّبَعَا

(أقلل طعامك) أمر من الإفعال أي اجعل طعامك قليلًا (كي تحظىٰ) علىٰ بناء الفاعل من حظي كرضي أي تصير ذا حظ ونصيب (به) أي بإقلال الطعام (سهرًا) تمييز بمعنىٰ الفاعل أي تجعل السهر حظك.

(إن شئت يا صاحبي أن تبلغ الكملا) بفتح الكاف والميم بمعنىٰ الكامل يقال أعطاه المال كملًا محركة أي كاملًا كذا في القاموس وجواب الشرط محذوف بقرينة ما قبله تقديره إن شئت يا صاحبي وقريني أن تبلغ الكامل من العلوم فأقلل طعامك.

(وقيل من أسهر نفسه) أي جعله يقظان (بالليل فقد فرح قلبه) أي صار قلبه ذا فرح (بالنهار) لأنه حصل في الليل ما لابد من تحصيله في النهار فإذا جاء النهار فرح بما حصل في الليل كأنه وجده مجانًا (ولابد لطالب العلم من المواظبة علىٰ الدرس والتكرار) بالجر معطوف علىٰ المواظبة.

(في أول الليل وآخره فإن ما بين العشاءين) أي المغرب والعشاء علىٰ سبيل التغليب كالعمرين والقمرين (ووقت السحر) أي قبيل الصبح الصادق (وقت مبارك) خبر إن فلابد لطالب العلم أن لا يضيعه ويصرفه بالاشتغال في العلوم.

(يا طالب العلم باشر الورعا) قوله باشر أمر حاضر أي الزم الورعا يعني العفة والتحرز عن الحرام والألف في الورعا ألف إشباع متولد من الفتحة وكذا فيما بعده (وجنب) أي بعِّد (النوم واحذر الشبعا) بكسر الشين المعجمة وفتح الباء ضد الجوع فإن النوم والشبع مانعان للتحصيل أو.

دَاوِمْ عَلَىٰ الدَّرْسَ لَا تُفَارِقُهُ   فَالعِلْمُ بِالدَّرْسِ قَامَ وَارْتَفَعَا

ويغتنم أيام الحداثة وعنفوان الشباب كما قيل:

بِقَدْرِ الكَدِّ تُعْطَىٰ مَا تَرُومُ   فَمَنْ رَامَ المُنَىٰ لَيْلًا يَقُومُ

وَأَيَّامُ الحَدَاثَةِ فَاغْتَنِمْهَا   أَلَا إِنَّ الحَدَاثَةَ لَا تَدُومُ

(داوم) أنت (علىٰ الدرس لا تفارقه) نهي عن المفارقة تأكيد للمدوامة (فالعلم) الفاء للتعليل أي لأن العلم (بالدرس) متعلق بقوله (قام) أي حصل (وارتفعا) أي زاد فإن ارتفاع العلم زيادة وهي لا تحصل إلا بالمداومة علىٰ الدرس.

يا طالب العلم الزم الورعا   واهجر النوم واترك الشبعا

يا طالب العلم فاجتهد بالليل والنهار فإن تحصيل العلم بالجد والتكرار فإن لكل شيء آفة وآفة العلم ترك الجد والتكرار.

(ويغتنم أيام الحداثة)بفتح الحاء مصدر حدث يقال حدث حدوثًا وحداثة وأيام الحداثة من عشرين إلىٰ أربعين (وعنفوان الشباب) أي أوله لأن الحواس والقوىٰ المدركة تامة قوية في زمان الشباب فإذا فات الشباب وأدرك أيام المشيب ضعفت القوىٰ والحواس فلا يقدر علىٰ تحصيل العلوم والمعارف فإذن لابد من اغتنام أيام الحداثة والشباب.

(كما قيل بقدر الكد) أي المشقة (تعطىٰ) أنت علىٰ صيغة المبني للمفعول (ما تروم) مفعول ثان لتعطىٰ أي ما تطلبه (فمن رام) أي طلب (المنىٰ) جمع منية وهي المقصود (ليلًا يقوم) أي يقوم ليلًا ويشتغل بمبادئ مطلوبه قدم ليلًا علىٰ عامله لرعاية القافية.

(وأيام الحداثة) منصوب علىٰ أنه مفعول فيه لقوله (فاغتنمها) أي خذها غنيمة ولا تضيعها (ألا) حرف تنبيه علىٰ تحقق ما بعدها فإن الهمزة الإنكارية الداخلة علىٰ النفي تفيد تحقق الإثبات قطعًا كما في قوله تعالىٰ ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦] ولذلك لا يكاد يقع ما بعدها من الجملة إلا مصدرة بما يتلىٰ به القسم لـ. (إن الحداثة لا تدوم) فلابد من حفظها واغتنامها قبل فوات الفرصة لأن الفرصة تمر مر السحاب.

ولا يجهد نفسه جهدًا، ولا يضعف النفسَ حتىٰ ينقطع عن العمل، بل يستعمل الرفق في ذلك، والرفق أصل عظيم في جميع الأشياء، قال رسول الله صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم: «أَلَا إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ، فَأَوْغِلُوا فِيهِ بِرِفْقٍ، وَلَا تُبَغِّضْ عَلَىٰ نَفْسِكَ عِبَادَةَ اللهِ تَعَالَىٰ، فَإِنَّ الْمُنْبَتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَبْقَىٰ»، وقال النبي صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم: «نَفْسُكَ مَطِيَّتُكَ فَارْفُقْ بِهَا». ولابد لطالب العلم من الهمة العالية في العلم، فإن المرء يطير بهمته،

(ولا يجهد نفسه) أي لا يجعلها ذات جهد ومشقة (جهدًا) مفعول مطلق (ولا يضعف) من الإضعاف (النفس حتىٰ ينقطع عن العمل) فإنه ليس بتحصيل بل بتعطيل.

(بل يستعمل الرفق في ذلك) أي في طلب العلم (والرفق) أي والحال أن الرفق (أصل عظيم) يبنىٰ عليه (في جميع الأشياء) وأيد هذا المدعىٰ بقول الرسول ﷺ فقال (قال رسول الله ﷺ ألا إن هذا الدين) أي دين الإسلام.

(متين) أي محكم (فأوغلوا) صيغة أمر من أوغل في العلم إذا ذهب (فيه) وبالغ أي اذهبوا فيه وبالغوا (برفق ولا تبغض علىٰ نفسك عبادة الله تعالىٰ) بإتعاب النفس (فإن المنبت) بضم الميم وتشديد التاء اسم فاعل من باب الانفعال من البت يقال انبت الرجل إذا انقطع ماء ظهره والمعنىٰ أن الرجل الذي انقطع قوة ظهره ومركبه بإتعابه وإيلامه.

(لا أرضًا قطع) لا نافية وأرضًا مفعول قطع قدم عليه أي لا قطع أرضًا بالسير وما وصل إلىٰ مطلوبه (ولا ظهرًا أبقىٰ) الظهر مركب منصوب علىٰ أنه مفعول أبقىٰ أي ولا أبقىٰ مركبه بل أهلكه وهذا تمثيل فالنفس مركب ركبته في السير إلىٰ الله وإذا أتبعته بكثرة الرياضات والعبادات وأعييته ينقطع عن السير بل يهلك لعدم تحمله فلابد من الرفق والتدريج كيلا يضعف مركبك فتصل إلىٰ مقصودك.

(وقال النبي صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم نفسك مطيتك) أي مركبك (فارق بها) هذا غنىٰ عن الشرح (ولابد لطالب العمل من الهمة العالية) أي القصد العالي (في العلم فإن المرء يطير بهمته) أي يرتقي في العلم بهمته وسعيه الجميل.

كالطير يطير بجناحيه:

قال أبو الطيب:

عَلَىٰ قَـدْرِ أَهْـلِ العَـزْمِ تَـأْتِي العَـزَائِمُ ... وَتَـأْتِي عَـلَىٰ قَـدْرِ الكَـرِيمِ المَكَـارِمُ
وَتَعْظُـمُ فِي عَـيْنِ الـصَّغِيرِ صِـغَارُهَا ... وَتَـصْغُرُ فِي عَـيْنِ العَظِـيمِ العَظَـائِمُ

والرأس في تحصيل الأشياء، الجد والهمة العالية، فمن كانت همته حفظ جميع كتب محمد بن الحسن، واقترن بذلك الجد والمواظبة، فالظاهر أنه يحفظ أكثرها أو نصفها، فأما إذا كانت له همة عالية، ولم يكن له جد، أو كان له جد ولم يكن له همة عالية فلا يحصل له إلا علم قليل.

(كالطير يطير بجناحيه قال أبو الطيب علىٰ قدر أهل العزم) ومرتبته في العزم (تأتي العزائم) أي المقاصد فمن كان عزمه في المرتبة العالية كانت مقاصده أتم وأكمل.

(وتأتي علىٰ قدر الكريم المكارم) جمع مكرمة وهي بمعنىٰ الكرم مرفوعة علىٰ أنها فاعل تأتي أي علىٰ مرتبة الكريم في الكرم تصدر المكارم منه فمن كان كرمه في النهاية العالية كان صدور المكارم منه في الغاية القاصية.

(وتعظم) أي تصير عظيمة (في عين الصغير) أي دنيء الهمة (صغارها) أي صغار المكارم هذا البيت بيان لما قبله (وتصغر في عين العظيم) أي عليّ الهمة (العظائم) أي الأشياء العظيمة التي تصدر عن صاحب الهمة العالية من مكارم الأخلاق تصغر وتحقر في عينه لأن همته عالية فبالنظر إلىٰ همته العالية تصغر الأشياء العظيمة.

(والرأس) أي والحال أن الرأس (في تحصيل الأشياء) أي رأس آلات التحصيل (الجد والهمة العالية فمن كانت همته حفظ جميع كتب محمد بن الحسن) وهو الإمام الرباني من الأئمة الحنفية كان مشهورًا بكثرة الكتب.

(واقترن بذلك) إشارة إلىٰ الهمة وتذكيره باعتبار معناه وهو القصد الكامل (الجد والمواظبة فالظاهر أنه يحفظ أكثرها أو نصفها) الضمير راجع إلىٰ الكتب (فأما إذا كانت له همة عالية ولم يكن له جد) أي اجتهاد. (أو كان له جد ولم يكن له همة عالية لا يحصل له إلا علم قليل) أي لفقدان أحد شرطي التحصيل.

وذكر الشيخ الأجل الإمام الأستاذ رضي الدين النيسابوري في كتاب «مكارم الأخلاق» أن ذا القرنين لما أراد أن يسافر ليستولي على المشرق والمغرب شاور الحكماء في ذلك، وقال: كيف أسافر لهذا القدر من الملك؟ فإن الدنيا قليلة فانية وملك الدنيا أمر حقير، فليس هذا من علو الهمة، فقال الحكماء: سافر ليحصل لك ملك الدنيا والآخرة، فقال: هذا حسن، قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ مَعَالِيَ الأُمُورِ، وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا**»،

(وذكر الشيخ الإمام الأجل الأستاذ رضي الدين النيسابوري في كتاب مكارم الأخلاق أن ذا القرنين) يعني اسكندر الرومي ملك فارس والروم وصل إلى المشرق والمغرب ولذا سمي ذا القرنين أو لأنه طاف قرني الدنيا شرقها وغربها وقيل انقرض في أيامه قرنان من الناس وقيل كان له قرنان أي ضفيرتان وقيل كان لتاجه قرنان ويحتمل أن يكون لقب بذلك لشجاعته كما يقال الكبش للشجاع كأنه ينطح أقرانه، واختلف في نبوته مع الاتفاق على إيمانه وصلاحه.

(لما أراد أن يسافر ليستولي) أي ليصير غالبًا واليًا (على المشرق والمغرب شاور الحكماء) جواب لما (وقال) أي ذو القرنين (كيف أسافر لهذا القدر من الملك) استفهام إنكاري يعني لا أسافر لهذا الملك الحقير وهو ملك الدنيا.

(فإن الدنيا قليلة فانية وملك الدنيا) منصوب معطوف على ما قبله (أمر حقير فليس هذا) أي الاستيلاء على المشرق والمغرب (من علو الهمة فقال الحكماء سافر) أنت (ليحصل لك ملك الدنيا والآخرة) بالجهاد لإعلاء كلمة الله تعالى (فقال) أي ذو القرنين.

(هذا) أي السفر لهذا الغرض (حسن) فبهمته العالية حصل له ملك الدنيا شرقًا وغربًا فعلم من هذا أنه لابد في تحصيل الأشياء من الجهد والهمة العالية (قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إن الله يحب معالي الأمور) أي يحب معالي الأمور الدينية بمعنى أنه يرضى عن صاحبها وعلوها بسبب اتصافها بالثبات والدوام والإخلاص.

(ويكره سفسافها) أي لا يرضى عن فاعله والسفساف الرديء من كل شيء والأمر الحقير كذا في القاموس.

وقيل:

فَــلَا تَعْجَــلْ بِــأَمْرِكَ وَاسْــتَدِمْهُ فَــمَا صَــلَّىٰ عَــصَاكَ كَمُــسْتَدِيمِ

قيل: قال أبو حنيفة لأبي يوسف رحمهما الله تعالىٰ: كنت بليدًا أخرجتك المواظبة في الدرس، وإياك والكسل فإنه شؤم، وآفةٌ عظيمة.

قال الشيخ أبو نصرِ الصفارُ الأنصاريُّ:

يَا نَفْسِ يَا نَفْسِ لَا تُرْخِي عِنِ العَمَـلِ فِي البِرِّ وَالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ فِي مَهَـلِ

(وقيل فلا تعجل بأمرك) أي ولا تعجل في أمرك الذي تطلب حصوله (واستدمه) أمر من استدامه إذا تأنى فيه أو تطلب دوامه كذا في القاموس.

(فما صلىٰ عصاك كمستديم) صلىٰ علىٰ صيغة المبني للفاعل من باب التفعيل يقال صليت العصا بالنار إذا لينتها وقومتها بالنار كذا في الصحاح وعصاك مفعوله وما نافية والكاف بمعنىٰ المثل في محل الرفع علىٰ أنه فاعل صلىٰ مضاف إلىٰ مستديم والمعنىٰ فما سدد وما استحكم عصاك علىٰ إرادة المسبب مثل شخص طالب دوام تلك العصا بل هو سددها فقط لأن السديد لا يريده إلا طالب الدوام لينتفع به فاستدم في أمرك واطلب دوامه كي يسدد أمرك ويستحكم وإنما قلنا علىٰ إرادة المسبب بناء علىٰ أنه صلىٰ مجاز مرسل ذكر السبب وهو تقويم العصا بالنار وأريد المسبب وهو التسديد والاستحكام.

(قيل قال أبو حنيفة) أي خطابًا (لأبي يوسف رحمهما الله تعالىٰ كنت) بصيغة الخطاب (بليدًا) أي أحمق (أخرجتك المواظبة في الدرس) عن البلادة (وإياك والكسل) هذه الجملة معطوفة علىٰ جملة إنشائية مقدرة تقديره فواظب عليه واتق من الكسل: (فإنه شؤم) أي غير يمن (وآفة عظيمة) ينبعث عنها أنواع الضرر.

(قال الشيخ أبو نصر الصفار الأنصاري يا نفس يا نفس) التكرير للتوكيد وهو مبني علىٰ الكسر بناء علىٰ أنه منادىٰ مضاف إلىٰ ياء المتكلم حذف ياؤه اكتفاء بالكسر.

(لا ترخي) من الإرخاء وهو جعل الشيء رخوًا والمراد النهي عن الكسل في الأعمال الصالحة وعلامة الجزم سقوط الحركة علىٰ لغة من يجعل المعتل كالصحيح في سقوط الحركة (عن العمل) أي عن الأعمال الدينية.

(في البر والعدل والإحسان) أي حال كونك في البر والعدل والإحسان متصفة بها (في مهل) بفتح الميم وسكون الهاء ويحرك الرفق والسكينة وهاهنا بالحركة للوزن وهو في

وَكُـلُّ ذِي عَمَـلٍ فِي الخَـيْرِ مُغْتَـبَطٌ وَفِي بَـلَاءٍ وَشُـؤْمٍ كُـلُّ ذِي كَـسَلِ

قال: وقد اتفق لي في هذا المعنى:

دَعِـي نَفْـسِي التَّكَاسُـلَ وَالتَّـوَانِيَ وَإِلَا فَـــاثْبُتِي فِي ذي الهَـــوَانِ

فَلَـمْ أَرَ لِلْكُـسَالَى الحَـظَّ يُحْظَـى سِـوَى نَـدَمٍ وَحِرْمَـانِ الأَمَـانِ

محل النصب على أنه حال مترادفة من فاعل لا ترخي أي حال كونك في سكينة ورفق لأن الرفق أصل عظيم في جميع الأشياء كما سبق.

(وكل ذي عمل في الخير مغتبط) قوله في الخير متعلق بقوله مغتبط قدم عليه للوزن وهو بفتح الباء أي اسم المفعول من الغبطة وهي أن يتمنى مثل حال المغبوط من غير إرادة زوالها عنه والحسد هو أن يتمنى مثل حال المحسود مع إرادة زوالها عنه وهذا حرام بخلاف الغبطة والمعنى كل ذي عمل مغتبط متمنى حاله في عمل الخير يعني يتمنى كل شخص أن يكون حاله مثل حاله وينال مثل ما يناله من الأجر والثواب.

(وفي بلاء وشؤم) خبر مقدم (كل ذي كسل) عن العمل لأنه بكسله يترك الأعمال النافعة في العاجل والآجل فيستحق البلاء والشآمة في الدنيا والآخرة (قال) أي المصنف (وقد اتفق لي في هذا المعنى) أي صدر عني اتفاقات إثبات هذا المعنى السابق في البيت هذا النظم.

(دعي نفسي التكاسل والتواني) أي اتركي يا نفسي التكاسل في الأعمال كلها (وإلا) أي وإن لم تتركي التكاسل (فاثبتي في ذي الهوان) وفي بعض النسخ في ذا الهوان على لغة من يجعل إعراب الأسماء الستة مقصورًا على الألف في الأحوال الثلاثة أي فاثبتي في العمل ذي الهوان والحقارة لأنه إذا تكاسل في الأعمال مطلقًا تفوت عنه المنافع الدينية والدنيوية فتثبت في الهوان والحقارة.

(فلم أر للكسالى) جمع كسلان (الحظ) أي النصيب (يحظى) وهذه الجملة الفعلية صفة للحظ المعرف بلام الجنس كقوله تعالى ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]. والعائد محذوف يعني ما رأيت لجماعة الكسالى في الأمور حظًا تصير تلك الجماعة ذات حظ به.

(سوى ندم) أي ندامة بأنه لأي شيء يتكاسل ولم يجهد (وحرمان الأماني) جمع أمنية وهي المقصودة والمتمنى أي لم أر للمتكاسلين في الطاعات حظًا ونصيبًا سوى الندامة

وقيل:

كَمْ مِنْ حَيَاءٍ وَكَمْ عَجْزٍ وَكَمْ نَدَمِ ... جَمٌّ تَوَلَّدَ لِلْإِنْسَانِ مِنْ كَسَلِ
إِيَّاكَ عَنْ كَسَلٍ فِي البَحْثِ عَنْ شُبَهٍ ... مَا قَدْ عَلِمْتَ، وَمَا قَدْ شَكَّ مِنْ كَسَلِ

وقد قيل: الكسل من قلة التأمل في مناقب العلم وفضائله، فينبغي أن يتعب نفسه على التحصيل والجد والمواظبة بالتأمل في فضائل العلم، فإن العلم يبقى، والمال يفنى، كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه:

رَضِينَا قِسْمَةَ الجَبَّارِ فِينَا ... لَنَا عِلْمٌ وَلِلأَعْدَاءِ مَالُ
فَإِنَّ المَالَ يَفْنَى عَنْ قَرِيبٍ ... وَإِنَّ العِلْمَ يَبْقَى لَا يَزَالُ

والعلم النافع يحصل به حسن الذكر

والمحرومية عن مقاصده ومراداته (وقيل كم من حياء) كم للخبرية ومن حياء تمييز وكذا فيما بعده.

(وكم عجز وكم ندم جم) أي كثير صفة لما قبله على سبيل البدل (تولد للإنسان) أي حصل له (من كسل إياك) أي اتق (عن كسل في البحث عن شبه) جمع شبهة (ما قد علمت وما قد شك من كسل) قوله ما قد علمت مبتدأ ومن كسل خبره أي الذي قد علمته والذي قد شككت فيه صادر من كسل لا يعتد به.

(وقد قيل الكسل من قلة التأمل في مناقب العلم وفضائله فينبغي أن يتعب) أي يشاق ويحرك (نفسه على التحصيل والجد والمواظبة بالتأمل) متعلق بيتعب (في فضائل العلم فإن العلم) تعليل لقوله فينبغي.

(يبقى) ببقاء المعلومات بعد فناء صاحبه (والمال يفنى) لأن الدنيا وما فيها فان (كما قال أمير المؤمنين على بن أبي طالب كرم الله وجهه.

رضينا قسمة الجبار فينا ... لنا علم وللأعداء مال)

يعني قسم الله تعالى بأن أعطى لنا العلم ولأعدائنا المال (فإن المال يفنى عن قريب) تعليل لما قبله ومعناه ظاهر.

(وإن العلم يبقى لا يزال) خبر بعد خبر مفيد للتأكيد لاتحاد المعنى (والعلم النافع) لا مطلق العلم إذ من العلوم ما لا ينفع فلا يحصل به ما يحصل من العلم النافع (يحصل به حسن الذكر) أي الذكر الحسن فإضافته من إضافة الصفة إلى الموصوف.

ويبقى ذلك بعد وفاته، فإنه حياة أبدية.

أنشدنا الشيخ الأجل ظهير الدين مفتي الأئمة الحسن بن علي المعروف بالمرغيناني شعرًا:

الجَـاهِلُونَ فَمَـوْتَى قَبْـلَ مَـوْتِهِمُ ... وَالعَـالِمُونَ وَإِنْ مَـاتُوا فَأَحْيَـاءُ

وأنشدنا شيخ الإسلام برهان الدين:

وَفِي الجَهْلِ قَبْلَ المَوْتِ مَوْتٌ لِأَهْلِهِ ... فَأَجْـسَامُهُمْ قَبْـلَ القُبُـورِ قُبُـورُ

وَإِنْ امْـرَأً لَمْ يَحْـيَ بِـالعِلْمِ مَيِّـتٌ ... وَلَـيْسَ لَـهُ حِـينَ النُّـشُورِ نُـشُورُ

(ويبقى ذلك) أي الذكر الجميل (بعد وفاته) أي وفاة العالم (فإنه) أي بقاء الذكر بعد وفاته (حياة أبدية) يحصل به ما يحصل بالحياة الأبدية من الذكر الجميل والثناء بالخير (وأنشدنا الشيخ الأجل ظهير الدين مفتي الأئمة الحسن بن علي المعروف بالمرغيناني شعرًا: الجاهلون فموتى) أي فهم موتي والموتى جمع ميت والفاء على تقدير أما في المبتدأ أو على تضمن المبتدأ معنى الشرط إذ المبتدأ اللام الاسمي الذي دخل على اسم الفاعل فهو بمعنى الذين فتقديره الذين جهلوا فهم موتى.

(قبل موتهم) إذ ليس فيهم معرفة ولا كمال كالجمادات فهم بمنزلة الموتى (والعالمون وإن ماتوا فأحياء) أي فهم أحياء ببقاء ذكرهم الجميل في الدنيا (وأنشدنا شيخ الإسلام برهان الدين وفي الجهل قبل الموت موت لأهله) سبق معناه فيما قبله آنفًا.

(فأجسامهم قبل القبور قبور) أي قبل دخول القبور مثل القبور في اشتمالها على ما هو بمنزلة الموتى (وإن امرأ لم يحي بالعلم ميت) قوله لم يحي بالعلم صفة امرأ و ميت خبر إن ومعناه ظاهر.

(وليس له حين النشور نشور) أي ليس له حين الانتباه من الغفلة نشور أي حياة قيام من قبرهم الذي هو الأجسام فإذا انتبهوا قاموا من قبورهم وصاروا مثل الأحياء العالمين فالنشور الأول بمعنى الانتباه من الغفلة والثاني بمعنى النشور المعروف.

غيره:

أَخُو العِلْـمِ حَـيٌّ خَالِـدٌ بَعْـدَ مَوْتِـهِ وَأَوْصَـالِهِ تَحْـتَ الـتُّرَابِ رَمِـيمُ
وَذُو الجَهْلِ مَيْتٌ وَهْوَ يَمْشِي عَلَى الثَّرَى يُظَـنُّ مِـنَ الأَحْيَـاءِ وَهْـوَ عَـدِيمُ

وأنشدنا شيخ الإسلام برهان الدين:

إِذِ العِلْـمُ أَعْـلَى رُتْبَـةً فِي المَرَاتِـبِ وَمِـنْ دُونِـهِ عِـزُّ العُـلَا فِي المَوَاكِـبِ
فَـذُو العِلْـمِ يَبْقَـى عِـزُّهُ مُتَـضَاعِفًا وَذُو الجَهْلِ بَعْدَ المَوْتِ تَحْتَ التَّيَارِبِ
فَهَيْهَاتَ لَا يَرْجُو مَـدَاهُ مَـنِ ارْتَقَـى رُقِـيَّ وَلِيِّ المُلْـكِ وَالِي الكَتَائِـبِ

(غيره أخو العلم) أي مصاحب العلم وملازمه (حي خالد) أي باق (بعد موته وأوصاله) أي المفاصل أو جمع وصل بالضم والكسر لكل عظم لا يكسر ولا يخلط بغيره (تحت التراب رميم) أي بال (وذو الجهل ميت وهو يمشي) أي والحال أنه يمشي.

(على الثرى) أي على الأرض (يظن) على صيغة المجهول (من الأحياء وهو عديم) أي معدوم (وأنشدنا شيخ الإسلام برهان الدين) أي قرأ علينا هذا الشعر (إذ العلم أعلى رتبة في المراتب) إذ منصوب بفعل مقدر نحو اذكر وقت كون العلم أعلى مرتبة بين المراتب.

(ومن دونه عز العلا في المواكب) جمع موكب وهو الجماعة ركبانًا أو مشاةً أي كائن من دون عز العلم عز العلو الحاصل في الجماعات الكثيرة لأن العزة الحاصلة في المجامع زائلة وعزة العلم باقية ببقاء العلم (فذو العلم يبقى عزه متضاعفًا) أي ذو العلم يبقى عزه بعد موته حال كون العزة متضاعفة من جهة الذكر بالجميل في الدنيا والدرجات العظمى في الآخرة.

(وذو الجهل بعد الموت تحت التيارب) جمع تيرب وهو بمعنى التراب قال في القاموس الترب والتراب والتربة والتَّرباء والتُّرباء والتيرب والتوارب والتريب معروف وجمع التراب أتربة وتربان ولم يسمع لسائرها جمع يعني الجاهل بعد الموت خالص التيارب لا يشوبه شيء من العز والعلا كما في العالم.

(فهيهات لا يرجو مداه) أي غاية عز العلم وفاعل لا يرجو (من ارتقى) أي ارتفع وصعد (رقي ولي الملك) الرقي بضم الراء وكسر القاف وتشديد الياء مصدر على وزن الدخول إذ أصله رقوي بمعنى الصعود مضاف إلى فاعله يعني هيهات لا يرجو غاية عز العلم من وصل إلى عزة صاحب الملك.

(والي الكتائب) جمع كتيبة وهي العسكر وجملة لا يرجو بصيغة أخبار ومعناه أنشأه.

سَأُمْلِي عَلَيْكُمْ بَعْضَ مَا فِيهِ فَاسْمَعُوا فَفِيَّ حَصْرٌ عَنْ ذِكْرِ كُلِّ المَنَاقِبِ
هُوَ النُّورُ كُلُّ النُّورِ يَهْدِي عَنِ العَمَىٰ وَذُو الجَهْلِ مَرَّ الدَّهْرِ بَيْنَ الغَيَاهِبِ
هُوَ الذِّرْوَةُ الشَّمَّاءُ تَحْمِي مِنَ الْتَجَا إِلَيْهَا وَيُمْسِي آمِنًا فِي النَّوَائِبِ
بِهِ يَنْجَىٰ وَالنَّاسُ فِي غَفَلَاتِهِمْ بِهِ يَرْتَجِي والرُّوحُ بَيْنَ التَّرَائِبِ
بِهِ يَشْفَعُ الإِنْسَانُ مَنْ رَاحَ عَاصِيًا إِلَىٰ دَرَكِ النِّيرَانِ شَرِّ العَوَاقِبِ

(سأملي) أي سأكتب (عليكم بعض ما فيه) أي في العلم من المناقب (فاسمعوا ففي) أي فحاصل في وهو خبر مقدم لقوله (حصر)ضيق وعي.

(عن ذكر كل المناقب) لكثرتها (هو النور) ابتدأ بذكر بعض المناقب الذي وعده أي العلم هو النور يستضاء به عن ظلمة الجهل (كل النور) تأكيد (يهدي عن العمىٰ) وهذه الجملة خبر بعد خبر وتعدية يهدي بعن علىٰ تضمين معنىٰ الإنحاء أي يهدي حال كونه منحيًا عن عمىٰ الجهل والضلال.

(وذو الجهل مر الدهر) نصب علىٰ الظرفية أي في مرور الدهر والزمان (بين الغياهب) جمع غيهب وهو الظلمة الشديدة يعني بين ظلمات الجهل وليست ظلمة أشد منها (هو الذروة الشماء) الضمير راجع إلىٰ العلم وفي بعض النسخ هي وتأنيثه باعتبار الخبر والذروة بفتح الذال وكسرها الأعلىٰ من كل شيء والشماء بفتح الشين المعجمة وتشديد الميم تأنيث أشم وهو المرتفع والمعنىٰ هو الجبل وإطلاق الذروة علىٰ العلم استعارة والجامع هو الحماية لمن التجأ فكما أن الذروة.

(تحمي من التجأ إليها) كذلك العلم يحمي ويحفظ عن كل مكروه من التجأ إليه كما ينبئ عن هذا قوله تحمي أي تحفظ من التجأ إليها أي الذروة العالية (ويمسي آمنًا) أي يصير آمنًا (في النوائب) أي في الشدائد (به) أي بالعلم (ينجىٰ) أي يتخلص عن عذاب الآخرة.

(والناس في غفلاتهم) الواو للحال أي والحال أن الناس في غفلاتهم جمع غفلة (به يرتجىٰ) أي بالعلم يرجىٰ الأمن من عذاب النيران (والروح بين الترائب) الترائب عظام الصدر أي والحال أن الروح بين عظام الصدر في حال النزع من البدن.

(به يشفع الإنسان من راح عاصيًا) أي ذهب حال كونه عاصيًا (إلىٰ درك النيران) متعلق براح والدرك جمع دركة وهي طبقة جهنم (شر العواقب) بالجر صفة النيران

فَمَـــنْ رَامَـــهُ رَامَ المَــآرِبَ كُلَّهَـــا		وَمَنْ حَازَهُ قَـدْ حَـازَ كُـلَّ المَطَالِـبِ
هُوَ المَنْصِبُ العَالِي أَيَا صَاحِبَ الحِجَا		إِذَا نِلْتَــهُ هَــوِّنْ بِفَــوْتِ المَنَاصِــبِ
فَإِنْ فَاتَـكَ الـدُّنْيَا وَطِـيبُ نَعِيمُهَـا		فَغَمِّضْ فَـإِنَّ العِلْـمَ خَـيْرُ المَوَاهِـبِ

وأنشدت لبعضهم:

إِذَا مَـــا اعْتَـــزَّ ذُو عِلْـــمٍ بِعِلْـــمٍ		فَعِلْـــمُ الفِقْـــهِ أَوْلَى بِـــاعْتِزَازِ
فَكَـمْ طِيـبٍ يَفُـوحُ وَلَا كَمِـسْكٍ		وَكَـمْ طَـيْرٍ يَطِـيرُ وَلَا كَبَـازِي

والعواقب جمع عاقبة أي الشفاعة ثابتة للعلماء في حق العصاة بإذن الله تعالى بسبب العلم الشريف.

(فمن رامه) أي فمن طلب العلم (رام المآرب كلها) أي طلب المطالب كلها لأنه مطلب يندرج جميع مطالب الدنيا والآخرة في ضمنه (ومن حازه) أي أحاطه وجمعه (قد حاز كل المطالب) بعضها في الدنيا وبعضها في الآخرة.

(هو المنصب العالي أيا صاحب الحجا) أي العقل (إذا نلته) أي إذا أصبته (هون بفوت المناصب) أي اتخذ هينًا فوت المناصب لأنك إذا حصلت المنصب العالي فلا يضر فوت سائر المناصب (فإن فاتك الدنيا وطيب نعيمها) أي إن لم تملك الدنيا وطيب نعيمها.

(فغمض) أنت عينيك وتغميض العينين كناية عن عدم الالتفات (فإن العلم خير المواهب) جمع موهبة وهي العطية فإذا حصلته لا ينبغي لك أن تضطرب من فوت نعيم الدنيا لأن خير المواهب في يدك.

(وأنشدت لبعضهم إذا ما اعتز ذو علم بعلم) كلمة ما في إذا ما زائدة كما مر غير مرة أي إذا صار ذو علم عزيزًا بعلم (فعلم الفقه أولى باعتزاز) لأنه مبين للأحكام والشرائع فشرف العلم وعزته بسبب شرف معلومه وعزته (فكم طيب يفوح) أي ينتشر رائحته.

(ولا كمسك) يعني رائحة المسك أعز وأطيب من سائره (وكم طير يطير ولا كبازي) أي الباز أشد طيرانًا من سائر الطيور فكذلك علم الفقه أعز سائر العلوم.

وأُنشدت لبعضهم:

الفِقْـهُ أَنْفَـسُ شَيْءٍ أَنْـتَ ذَاخِـرُهُ مَنْ يَدْرُسِ العِلْمَ لَمْ تَدْرُسْ مَفَاخِرُهُ
فَاجْهَدْ لِنَفْسِكَ مَا أَصْبَحْتَ تَجْهَلُهُ فَـأَوَّلُ العِلْـمِ إِقْبَـالٌ وَآخِـرُهُ

وكفىٰ بلذة العلم والفقه والفهم داعيًا وباعثًا للعاقل علىٰ تحصيل العلم، وقد يتولد الكسل من البلغم والرطوبات، وطريق تقليله تقليل الطعام، قيل: اتفق سبعون نبيًّا علىٰ أن كثرة النسيان من كثرة البلغم وكثرة البلغم من كثرة شرب الماء، وكثرة شرب الماء من كثرة الأكل، والخبز اليابس يقطع البلغم، وكذا أكل الزبيب علىٰ الريق يقطع البلغم، ولا يكثر منه حتىٰ لا يحتاج إلىٰ شرب الماء فيزيد البلغم،

(وأنشدت) أيضًا بصيغة المتكلم المبنية للمفعول كما مر مرارًا أي قرئ عليَّ هذا الشعر.
(لبعضهم الفقه أنفس شيء) أي أعزه (أنت ذاخره) أي جامعه(من يدرس العلم) أي من يقرأ العلم (لم تدرس مفاخره) أي لم تعف ولم تزل ما دام قارئ العلم ودارسه من درس دروسًا إذا عفا وهو من الباب الأول لازم ومتعد.
(فاجهد لنفسك ما أصبحت تجهله) أي فاجهد وحصل لنفسك ما صرت تجهله (فأول العلم إقبال) أي سعادة (وآخره) أيضًا إقبال (وكفىٰ بلذة العلم) الباء زائدة نحو ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي كفىٰ لذة العلم.
(والفقه) من عطف الخاص علىٰ العام تشريفًا وتعظيمًا للخاص (والفهم داعيًا وباعثًا للعاقل علىٰ تحصيل العلم وقد يتولد) أي يحصل (الكسل من البلغم والرطوبات) الحاصلة في البدن من كثرة الطعام.
(وطريق تقليله تقليل الطعام قيل اتفق سبعون نبيًّا علىٰ أن كثرة النسيان من كثرة البلغم وكثرة البلغم من كثرة شرب الماء وكثرة شرب الماء من كثرة الأكل والخبز اليابس يقطع البلغم) لأنه ليبوسته لا تتولد منه الرطوبة بل إذا اقترن بالرطوبة يقلل الرطوبة.
(وكذا أكل الزبيب علىٰ الريق) أي علىٰ الجوع (يقطع البلغم) لما فيه من الحرارة (ولا يكثر منه) أي من أكل الزبيب (حتىٰ لا يحتاج إلىٰ شرب الماء فيزيد البلغم) بالنصب

والسواك يقلل البلغم، ويزيد في الحفظ والفصاحة؛ فإنه سنة سنية، يزيد في ثواب الصلاة وقراءة القرآن، وكذلك القيء يقلل البلغم والرطوبات وطريق تقليل الأكل التأمل في منافع قلة الأكل، وهي الصحة والعفة والإيثار، قيل:

فَعَـــارٌ ثُـــمَّ عَـــارٌ ثُـــمَّ عَـــارٌ شَـقَاءُ المَـرْءِ مِـنْ أَجْـلِ الطَّعَـامِ

وعن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: «ثَلَاثَةٌ يَبْغَضُهُمُ اللهُ تَعَالَى مِنْ غَيْرِ جُرْمٍ: الأَكُولُ وَالبَخِيلُ وَالمُتَكَبِّرُ»، والتأمل في مضارِّ كثرة الأكل، وهي الأمراض وكلالة الطبع، قيل: البِطنة تذهب الفِطنة.

معطوف على يحتاج أي فإن شرب الماء يزيد البلغم لأن البلغم متولد من الماء والأشياء التي فيها رطوبة.

(والسواك) أي استعماله (يقلل البلغم ويزيد في الحفظ والفصاحة) في المنطق (فإنه سنة سنية) أي رفيعة مرضية (يزيد في ثواب الصلاة وقراءة القرآن) لما روي عن النبي ﷺ أنه قال «صلاة على أثر السواك أفضل من خمس وسبعين صلاة بغير سواك».

(وكذلك القيء يقلل البلغم والرطوبات وطريق تقليل الأكل التأمل في منافع قلة الأكل وهي) أي تلك المنافع (الصحة) أي صحة البدن لما أن أكثر الأمراض تحصل من كثرة الطعام (والعفة) أي التورع عن الحرام لقلة الشهوة الحاصلة من كثرة الأكل.

(والإيثار) أي إيثار الغير واختياره على الطعام بالتصدق عليه وذلك إنما يحصل غالبًا إذا أكل الطعام قليلًا وتصدق بباقيه (وقيل) فيه أي في ذم كثرة الأكل (فعار ثم عار ثم عار) خبر مقدم لقوله (شقاء المرء من أجل الطعام) أي كون الرجل شقيًّا من أجل الطعام المؤدي إلى كثرة الشهوة المفضية إلى ارتكاب المعاصي.

(وعن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال ثلاثة) أي ثلاثة نفر (يبغضهم الله تعالى من غير جرم) من الإجرام بل باتصافهم بالصفات التي يأتي ذكرها (الأكول) أي الأول الذي يأكل كثيرًا (والبخيل) أي البخيل عن الصدقات والنوافل (والمتكبر) لأن التكبر صفة مخصوصة بذات الله تعالى فمن أراد أن يشاركه فيها يبغضه الله تعالى.

(والتأمل) بالرفع عطف على قوله التأمل في منافع الأكل أي وطريق تقليل الأكل التأمل (في مضار كثرة الأكل وهي الأمراض وكلالة الطبع) أي ملالة الطبع وكسله عن ملاحظة المعارف (قيل البطنة) بكسر الباء أي امتلاء البطن بالطعام (تذهب الفطنة) أي الذكاء وتمنعه.

حكي عن جالينوس أنه قال: الرمان نفع كله، والسمك ضرر كله، وقليل السمك خير من كثير الرمان، وفيه إتلاف المال، والأكل فوق الشبع ضرر محضٌ، ويُستحق به العقاب في دَّار الآخرة، والأكول بغيض في القلوب، وطريق تقليل الأكل أن يأكل الأطعمة الدسمة، ويقدم في الأكل الألطف والأشهىٰ، ولا يأكل مع الجيعان، إلَّا إذا كان له غرض صحيح في كثرة الأكل، بأن يتقوىٰ به علىٰ الصيام والصلاة والأعمال الشاقة فله ذلك.

(حكي عن جالينوس أنه قال الرمان نفع كله) أي كل أجزاء الرمان نافع (والسمك ضرر كله و) ومع هذا قيل (قليل السمك خير من كثير الرمان وفيه) أي والحال أن فيه (إتلاف المال والأكل فوق الشبع ضرر محض) يفسد البدن ويمرضه (ويستحق به) أي بالأكل فوق الشبع.

(العقاب في دار الآخرة) لأنه حرام (والأكول) أي المبالغ في الأكل (بغيض) أي مبغوض (في القلوب وطريق تقليل الأكل أن يأكل الأطعمة الدسمة) أي التي لها دسامة وسمن (ويقدم) بالنصب عطف علىٰ أن يأكل.

(في الأكل الألطف) الذي له زيادة لطافة (والأشهىٰ) أي الذي هو أشد اشتهاء من سائر الأطعمة (ولا يأكل) بالنصب عطف علىٰ ما قبله (مع الجيعان) جمع جائع (إلا إذا كان له غرض صحيح) استثناء منقطع من قوله والأكل فوق الشبع ضرر محض تقديره والأكل فوق الشبع ضرر لكن إذا كان له غرض صحيح.

(في كثرة الأكل بأن يتقوىٰ به) أي بالأكل فوق الشبع (علىٰ الصيام والصلاة والأعمال الشاقة) كالسفر وغيره (فله ذلك) جواب إذا أي فللآكل ذلك أي الأكل فوق الشبع لأن تفويته للعبادات كانت سببًا لارتفاع حرمته فبهذا الغرض الصحيح حل له ذلك.

فصل

في بداية السبق وقدره وترتيبه

كان أستاذنا شيخ الإسلام برهان الدين يوقف بداية السبق علىٰ يوم الأربعاء، وكان يروي في ذلك حديثًا، فيستدل به ويقول: قال رسول الله ﷺ «مَا مِنْ شَيْءٍ بُدِئَ يَوْم الأَرْبِعَاءِ إِلَّا وَقَدْ تَمَّ» وهكذا كان يفعل أبو حنيفة، وكان يروي هذا الحديث عن أستاذه الشيخ الإمام الأجل قوام الدين أحمد بن عبد الرشيد، وسمعت ممن أثق به أن الشيخ أبا يوسف الهمداني كان يوقف كل عمل من أعمال الخير علىٰ يوم الأربعاء؛ وهذا لأن يوم الأربعاء يومٌ خُلق فيه النور، وهو يوم نحس في حق الكفار

(فصل في بداية السبق)

أي في بيان ابتداء السبق من الأستاذ (وقدره) أي مقدار السبق (وترتيبه) أي ترتيب السبق (كان أستاذنا شيخ الإسلام برهان الدين يوقف) أي كان عادته أن يوقف (بداية السبق) أي في بدايته (علىٰ يوم الأربعاء وكان) أي الأستاذ.

(يروي في ذلك) أي في ابتداء السبق يوم الأربعاء (حديثًا فيستدل به ويقول قال رسول الله ﷺ ما من شيء بدئ) علىٰ صيغة المجهول(يوم الأربعاء إلا وقد تم) الواو في وقد تم للحال من شيء وهو موصوف تقديره ما من شيء بدئ يوم الأربعاء في حال من الأحوال إلا حال تحقق تماميته.

(وهكذا كان يفعل أبو حنيفة وكان يروي هذا الحديث) المذكور آنفًا (عن أستاذه الشيخ الإمام الأجل قوام الدين أحمد بن عبد الرشيد وسمعت ممن أثق) أي أعتمد (به أن الشيخ أبا يوسف الهمداني كان يوقف) أي يجعل موقوفًا (كل عمل من أعمال الخير علىٰ يوم الأربعاء وهذا) أي التوقيف ثابت.

(لأن يوم الأربعاء يوم خلق فيه النور) فاليوم الذي خلق فيه النور مبارك أيضًا يتفاءل به ازدياد نور العالم (وهو يوم نحس) أي غير مبارك (في حق الكفار) لأنه روي أن الله

فيكون مباركًا للمؤمنين.

وأما قدر السبق في الابتداء فكان أبو حنيفة يحكي عن الشيخ القاضي الإمام عمر بن أبي بكر الزرنجي أنه قال: قال مشايخنا: ينبغي أن يكون قدر السبق للمبتدي قدر ما يمكن ضبطه بالإعادة مرتين، ويزيد كل يومٍ كلمة حتى إنه وإن طال وكثر يمكن ضبطه بالإعادة مرتين ويزيد بالرفق والتدريج.

فأما إذا طال السبقُ في الابتداء واحتاج المتعلم إلى إعادة السبق عشر مراتٍ، فهو في الانتهاء أيضًا يكون كذلك لأنه يعتاد ذلك، ولا يترك تلك العادة إلا بجهد كثير، قيل: السبق حرف، والتكرار ألْف، وينبغي أن يبتدئ بشيءٍ يكون أقرب إلى فهمه، وكان الشيخ الإمام الأستاذ شرف الدين العقيلي يقول: الصواب عندي في هذا

تعالى ما خسف بقوم من الكفار ولا مسخ قومًا منهم إلا لآخر يوم الأربعاء من كل شهر.

(فيكون مباركًا للمؤمنين وأما قدر السبق) أي مقداره (في الابتداء) أي في ابتداء التعلم قوله وأما قدر مبتدأ خبره ما فهم من هذه الحكاية (فكان أبو حنيفة يحكي عن الشيخ القاضي الإمام عمر بن أبي بكر الزرنجي أنه قال قال مشايخنا ينبغي أن يكون قدر السبق للمبتدي قدر ما يمكن ضبطه) أي حفظه وتعلمه.

(بالإعادة) أي بإعادة السبق (مرتين) وذلك لا يتأتى في السبق الكثير (ويزيد كل يوم كلمة حتى إنه وإن طال) إن للوصل (وكثر) أي السبق (يمكن ضبطه بالإعادة مرتين ويزيد بالرفق والتدريج) لا دفعة ليسهل تعلمه وحفظه (فأما إذا طال السبق في الابتداء واحتاج المتعلم إلى إعادة السبق عشر مرات فهو) أي المتعلم.

(في الانتهاء أيضًا) كما في الابتداء (يكون كذلك) أي يحتاج إلى الإعادة الكثيرة (لأنه يعتاد ذلك ولا يترك تلك العادة إلا بجهد كثير وقيل السبق حرف) وهذا كناية عن القلة (والتكرار ألف) وهذا كناية عن الكثرة ففهم من هذا أن اللازم للمتعلم التكرير دون التكثير.

(وينبغي أن يبتدئ بشيء) من العلوم (يكون أقرب إلى فهمه) ويسهل تعلمه من غير تعب ومشقة (وكان الشيخ الإمام الأستاذ شرف الدين العقيلي يقول) أي عادته أن يقول (الصواب عندي في هذا) أي في تعيين السبق الذي ابتدئ أول مرة.

ما فعله مشايخنا؛ فإنهم كانوا يختارون للمبتدي صغارات المبسوطة؛ لأنه أقرب إلى الفهم والضبط، وأبعد من الملالة وأكثر وقوعًا، وينبغي أن يُعلق السبق بعد الضبط والإعادة كثيرًا، فإنه نافع جدًّا، ولا يكتب المتعلم شيئًا لا يفهمه؛ فإنه يورث كلالة الطبع، ويذهب الفطنة، ويضيع أوقاته وينبغي أن يجتهد في الفهم من الأستاذ، أو بالتأمل والتفكر وكثرة التكرار، فإنه إذا قل السبق وكثر التكرار والتأمل يُدرَك ويُفهَم، قيل: حفظ حرفين خير من سماع وِقْرين، وفهم حرفين خير من حفظ وِقْرين، وإذا تهاون في الفهم ولم يجتهد مرة أو مرتين يعتاد ذلك، فلا يفهم الكلام اليسير،

(ما فعله مشايخنا) قوله الصواب عندي مبتدأ خبره ما فعله (فإنهم كانوا يختارون للمبتدئ صغارات المبسوطة) أي الكتب الصغيرة الحجم والقطعة من المبسوطة (لأنه) أي اختيارها (أقرب إلى الفهم) من المطولات (والضبط وأبعد من الملالة) بكثرة مسائله.

(وأكثر وقوعًا) مسائله بين الناس (وينبغي أن يعلق) أي المتعلم (السبق) التعليق عبارة عن الكتابة يعني كانوا في الزمان الأول يحفظون السبق من الأستاذ ثم يكتبونه ويسمونه تعليقًا (بعد الضبط والإعادة كثيرًا فإنه) أي التعليق (نافع جدًّا) أي قطعًا.

(ولا يكتب المتعلم شيئًا لا يفهمه) هذه الجملة صفة شيئًا (فإنه يورث) أي يعطي (كلالة الطبع) أي إعياء الطبع (ويذهب الفطنة) أي الذكاء (ويضيع أوقاته) لأنه يسعىٰ بما لا فائدة فيه فيكون عبثًا ويضيع الأوقات (وينبغي أن يجتهد في الفهم من الأستاذ) متعلق بالفهم.

(أو بالتأمل) فيما قاله الأستاذ (والتفكر وكثرة التكرار فإنه) أي الشأن (إذا قل السبق وكثر التكرار والتأمل يدرك) أي السبق (ويفهم قيل حفظ حرفين) أي كلمتين (خير من سماع وقرين) الوقر بكسر الواو وسكون القاف الحمل أي حفظ كلمتين خير من سماع حملين من غير حفظ.

(وفهم حرفين خير من حفظ وقرين) فعلم الفرق بين السماع والحفظ والفهم فرقًا بينًا (وإذا تهاون) أي تكاسل (في الفهم ولم يجتهد) بيان للتكاسل (مرة أو مرتين يعتاد ذلك) أي عدم الفهم (فلا يفهم الكلام اليسير) فهمه وإدراكه لاعتياد الطبيعة بعدم الفهم.

فينبغي يجتهد ويدعو الله تعالى ويتضرع إليه، فإنه يجيب من دعاه ولا يخيب من رجاه.

أنشدنا الشيخ الإمام الأجل قوام الدين حماد بن إبراهيم بن إسماعيل الصفار إملاء للقاضي الخليل بن أحمد السجرزي:

أُخْدُمِ العِلْمَ خِدْمَةَ المُسْتَفِيدِ وَأَدِمْ دَرْسَهُ بِفِعْلٍ حَمِيدِ
وَإِذَا مَا حَفِظْتَ شَيْئًا أَعِدْهُ ثُمَّ أَكِّدْهُ غَايَةَ التَّأْكِيدِ
ثُمَّ عَلِّقْهُ كَيْ تَعُودَ إِلَيْهِ وَإِلَى دَرْسِهِ عَلَى التَّأْبِيدِ
فَإِذَا مَا أَمِنْتَ مِنْهُ فَوَاتًا فَانْتَدِبْ بَعْدَهُ لِشَيْءٍ جَدِيدِ

(فينبغي أن يجتهد ويدعو الله تعالى ويتضرع إليه فإنه) أي الله تعالى (يجيب من دعاه) لأنه قال في محكم كتابه ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر: ٦٠] (ولا يخيب) أي لا يجعل مأيوسًا (من رجاه) أي من رجا منه رحمته وعفوه (أنشدنا الشيخ الإمام الأجل قوام الدين حماد بن إبراهيم بن إسماعيل الصفار) الأنصاري أي قرأ علينا.

(إملاء) أي شعرًا (للقاضي الخليل بن أحمد السجرزي) وفي بعض النسخ السرخسي شعرًا (اخدم العلم خدمة المستفيد) أي داومه وجاهد في دوامه كمجاهدة المستفيد من العلم الذائق لذته (وأدم) من الإدامة.

(درسه بفعل حميد) أي بفعل محمود وهو الحفظ والتكرار (وإذا ما حفظت شيئًا أعده) كلمة ما في إذا ما زائدة أي إذا حفظت شيئًا من العلوم أعده وكرره (ثم أكده) أمر من التأكيد أي أكد وكرر ما حفظته (غاية التأكيد) كيلا يزول عن خاطرك.

(ثم علقه) أمر من التعليق أي اكتبه (كي تعود إليه) أي كي ترجع إليه (وإلى درسه على التأبيد) لأن ما حفظته كثيرًا ما يذهب عن الحفظ فإذا علقته تجده مهما رجعت إليه وتدرسه كلما أردت درسه.

(فإذا ما أمنت منه فواتًا) كلمة ما زائدة وضمير منه يرجع إلى الشيء وفواتًا نصب على التمييز أي إذا أمنت من فوات ما حفظته (فانتدب بعده) أي سارع بعد ذلك الشيء المأمون من فواته يقال انتدب الله لمن خرج في سبيله أي سارع بثوابه كذا في القاموس. (لشيء جديد) أي لتحصيل شيء جديد

مَـعَ تَكْـرَارِ مَـا تَقَـدَّمَ مِنْـهُ   واقتنـاءً لِـشَأْنِ هَـذَا المَزِيـدِ
ذَاكِـرِ النَّـاسَ بِـالعُلُومِ لِتَحْيَـا   لَا تَكُـنْ مِـنْ أُولِي النُّهَـىٰ بِبَعِيـدِ
إِنْ كَتَمْـتَ العُلُـومَ أُنْـسِيتَ حَتَّـىٰ   لَا تُـرَىٰ غَـيْرَ جَاهِـلٍ وَبَلِيـدِ
ثُـمَّ أُلْجِمْـتَ فِي القِيَامَـةِ نَـارًا   وَتَلَهَّبْـتَ بِالعَـذَابِ الـشَّدِيدِ

ولابد لطالب العلم من المذاكرة والمناظرة والمطارحة، فينبغي أن يكون

(مع تكرار ما تقدم منه) أي مع تكرار المسألة التي تقدمت والضمير في منه يرجع إلى الشيء الجديد (واقتناء) بالجر عطف على تكرار ما تقدم أي اكتساب (لشأن هذا المزيد) الذي أسرعت إلى تحصيله.

(ذاكر الناس بالعلوم) أي بتعليمهم إياها (لتحيا) أي لتكون حيًّا بالحياة الأبدية لقوله صلى الله تعالى عليه وسلم «من صار بالعلم حيًّا لم يمت أبدًا» وفي بعض النسخ لتحمى من الحماية أي لتكن محميًا من العذاب والعقاب ببركة تعليمك (لا تكن من أولي النهي ببعيد) النهي جمع نهية وهي العقل أي لا تكن من ذوي العقول ببعيد لأن صحبتهم تفيدك منافع الدنيا والآخرة.

(إن كتمت العلوم أنسيت) يعني إن كتمت العلوم ومنعت عن الطالبين جزيت بالنسيان (حتى لا ترى) بصيغة المجهول (غير جاهل وبليد) أي لا تظن غير جاهل وبليد يعني نسيانك بالعلم يصل إلى مرتبة لا يظن الرائي إياك إلا جاهلًا وبليدًا وبهذا القدر لا يكتفى بل تعذب بالعذاب الشديد في الآخرة حسبما ينبئ عنه قوله.

(ثم ألجمت) على صيغة الخطاب المبنية للمفعول (في القيامة نارًا) أي بلجام من نار جهنم (وتلهبت) أي يتلهب أيضًا سائر جسدك (بالعذاب الشديد) لما روي عن النبي ﷺ أنه قال «من علم علمًا فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار» وقال ﷺ «خلفائي رحمهم الله تعالى» قيل ومن خلفاؤك يا رسول الله «قال الذين يحبون سنتي ويعلمونها عباد الله تعالى» كذا في الإحياء.

(ولابد لطالب العلم من المذاكرة والمناظرة) أي المباحثة (والمطارحة) من طرح أحدهما كلام الآخر (فينبغي أن يكون) كل منهما

بالإنصاف والتأني والتأمل، ويتحرز عن الشغب، فإن المناظرة والمذاكرة مشاورة، والمشاورة إنما تكون لاستخراج الصواب، وذلك إنما يحصل بالتأمل والتأني والإنصاف، ولا يحصل ذلك بالغضب والشغب، فإن كانت نيته من المباحثة إلزام الخصم وقهره لا يحل ذلك، وإنما يحل ذلك لإظهار الحق والتمويه، والحيلة لا تجوز فيها إلا إذا كان الخصم متعنتًا لا طالبًا للحقِّ.

وكان محمد بن يحيىٰ إذا توجه عليه الإشكال ولم يحضره الجواب يقول له: ما أَلزمتَه لازم، وأنا فيه ناظر، وفوق كل ذي علمٍ عليمٌ، وفائدة المطارحة والمناظرة أقوىٰ من فائدة مجرد التكرار؛ لأن فيه تكرارًا وزيادة، وقيل: مطارحة ساعةٍ خير من تكرار شهرٍ، لكن إذا كانت مع منصفٍ سليم الطبع.

(بالإنصاف والتأني والتأمل) لأن أضداد هذه الأشياء مذمومة ومستهجنة (ويتحرز عن الشغب) بفتح الشين المعجمة وسكون الغين المعجمة وتحريكها أي تهييج الشر وتحريكه.

(فإن المناظرة والمذاكرة مشاورة والمشاورة إنما تكون لاستخراج الصواب وذلك) أي استخراج الصواب (إنما يحصل بالتأمل والتأني والإنصاف ولا يحصل ذلك بالغضب والشغب فإن كانت نيته من المباحثة إلزام الخصم وقهره لا يحل ذلك) أي ما ذكر من المباحثة والمطارحة.

(وإنما يحل ذلك لإظهار الحق) أي الصواب (والتمويه) أي التلبيس (والحيلة لا تجوز فيها) أي في المناظرة (إلا إذا كان الخصم متعنتًا) أي طالبًا لزلة صاحبه (لا طالبًا للحق) فحينئذ تجوز (وكان محمد بن يحيىٰ إذا توجه عليه الإشكال ولم يحضره الجواب يقول له ما ألزمته) من السؤال.

(لازم) أي وارد (وأنا فيه) أي في الإشكال الذي أوردته (ناظر) أي متأمل (وفوق كل ذي علم عليم) أرفع درجة منه (وفائدة المطارحة والمناظرة أقوىٰ من فائدة مجرد التكرار لأن فيه) أي في المطارحة وتذكير الضمير باعتبار تأويل المصدر بأن مع الفعل.

(تكرارًا) لما علمته (وزيادة) أي زيادة ما لم تعلمه لأنه بسبب المناظرة ينكشف من المعاني الدقيقة الغامضة ما لا ينكشف بدونها (وقيل مطارحة ساعة خير من تكرار شهر لكن إذا كانت) المناظرة (مع منصف) أي ذي إنصاف (سليم الطبع) عن الاعوجاج

وإياك والمذاكرة مع مُتعنتٍ غير مستقيم الطبع فإن الطبيعة مسرقة والأخلاق متعدية والمجاورة مؤثرة، وفي الشعر الذي ذكره الخليل بن أحمد فوائد كثيرة، قيل:

العِلْـمُ مِـنْ شَرْطِـهِ لِمَـنْ خَدَمَـهْ　　أَنْ يَجْعَـلِ النَّـاسَ كُلَّهُـمْ خَدَمَـهْ

وينبغي لطالب العلم أن يكون متأملًا في جميع الأوقات في دقائق العلوم ويعتاد ذلك، فإنما يدرك الدقائق بالتأمل؛ ولهذا قيل: تَأَمَّلْ تُدْرِكْ، ولابد من التأمل قبل الكلام حتى يكون صوابًا، فإن الكلام كالسهم فلابد من تقويمه

(وإياك) نصب على التحذير (والمذاكرة) أي اتق المذاكرة (مع متعنت) أي طالب لزلة الخصم.

(غير مستقيم الطبع فإن الطبيعة مسرقة) من السرقة أي سارقة أخلاق صاحبه شيئًا فشيئًا (والأخلاق) أي الأوصاف (متعدية) أي متجاوزة إلى الغير (والمجاورة) أي المقاربة والمقارنة (مؤثرة) فيتأثر الرجل بالمقارنة فيظهر فيه من الآثار والأوصاف ما كان مخصوصًا بصاحبه.

(وفي الشعر الذي ذكره الخليل بن أحمد) وهو الشعر الذي مر ذكره آنفًا وهو ما أوله: اخدم العلم خدمة المستفيد، (فوائد كثيرة) مبتدأ مؤخر خبره وفي الشعر خبر مقدم (قيل العلم من شرطه لمن خدمه أن يجعل الناس كلهم خدمه) فقوله العلم مبتدأ ومن شرطه خبر مقدم ولمن خدمه متعلق بأن يجعل الناس على التوسع في الظروف وهو مبتدأ مؤخر والجملة خبر المبتدأ الأول وخدم في المصراع الأول فعل ماض والهاء ضمير مفعول وفي الثاني جمع خادم والمعنى من شرط العلم أن يجعل الناس كلهم خادمين لمن خدمه على ما ينبئ عنه الخبر المشهور وهو من خدم خدم.

(وينبغي لطالب العلم أن يكون متأملًا في جميع الأوقات في دقائق العلوم ويعتاد ذلك) أي التأمل في دقائق العلوم (فإنما يدرك الدقائق بالتأمل ولهذا قيل تأمل تدرك) قوله تأمل أمر وتدرك مجزوم على أنه جوابه يعني إن تأملت في شيء تدركه لا محالة (ولابد من التأمل قبل الكلام حتى يكون صوابًا فإن الكلام كالسهم فلابد من تقويمه) أي جعله مستقيمًا.

بالتأمل قبل الكلام حتى يكون مصيبًا.

وقال في "أصول الفقه": هذا أصل كبير وهو أن يكون كلام الفقيه المناظر بالتأمل، قيل: رأس العقل أن يكون الكلام بالتثبت والتأمل، قال قائل:

أُوصِيكَ فِي نَظْمِ الكَلَامِ بِخَمْسَةٍ ... إِنْ كُنْتَ لِلْمُوصِي الشَّفِيقِ مُطِيعَا

لَا تَغْفِلَنْ سَبَبَ الكَلَامِ وَوَقْتَهُ ... وَالكَيْفَ وَالكَمَّ المَكَانَ جَمِيعَا

ويكون مستفيدًا في جميع الأوقات والأحوال من جميع الأشخاص، قال رسول الله ﷺ: «الحِكْمَةُ ضَالَّةُ المُؤْمِنِ، أَيْنَمَا وَجَدَهَا أَخَذَهَا»، وقيل: خُذ ما صفا ودع ما كَدُر، وسمعت الشيخ الإمام الأجل الأستاذ فخر الدين الكاشاني يقول: كانت جارية أبي يوسف رحمه الله تعالى أمانة عند محمد، فقال لها محمد: هل تحفظين

(بالتأمل قبل الكلام حتى يكون) أي سهم الكلام (مصيبًا) أي إلى المقصود فكما أن سهم القوس إذا كان معوجًا لم يصل إلى المقصود كذلك سهم الكلام إذا كان فيه اعوجاج بأن كان غير مقصودك لم يصل إلى المراد (وقال) أي صاحب أصول الفقه (في أصول الفقه هذا أصل كبير وهو أن يكون كلام الفقيه المناظر بالتأمل قيل رأس العقل أن يكون الكلام بالتثبت) أي بالتأني والوقار.

(والتأمل قال قائل) في بيان ما يتأمل في الكلام (أوصيك في نظم الكلام بخمسة) أشياء (إن كنت) بصيغة الخطاب (للموصي الشفيق) أي للذي أوصاك بخير وأشفقك (مطيعًا لا تغفلن) بالنون الخفيفة (سبب الكلام ووقته) أي لا تغفل عن سبب الكلام ومنشئه ووقته الذي ناسب الكلام فيه دون غيره.

(والكيف) أي وصف الكلام (والكم) أي مقداره و(المكان) الذي ناسب الكلام فيه (جميعًا ويكون) بالنصب عطف على أن يكون متأملًا (مستفيدًا في جميع الأوقات والأحوال من جميع الأشخاص) من غير نظر إلى كونه وضيعًا وشريفًا صغيرًا وكبيرًا ذكرًا وأنثى وأثبت هذا المعنى بقوله.

(قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الحكمة ضالة المؤمن) أي لقطته (أينما وجدها أخذها وقيل خذ ما صفا) مما استفدته (ودع) أي اترك (ما كدر) أي ما كان مكدرًا أي مشوبًا بالضعف والفساد (وسمعت الشيخ الإمام الأجل الأستاذ فخر الدين الكاشاني يقول كانت جارية أبي يوسف رحمه الله تعالى أمانة عند محمد فقال لها محمد هل تحفظين) أنت.

في هذا الوقت من أبي يوسف في الفقه شيئًا. قالت: لا، إلا أنه كان يكرر ويقول: سهم الدور ساقط فحفظ ذلك منها، وكانت مشكلة علىٰ محمد، فارتفع إشكاله بهذه الكلمة، فعلم أن الاستفادة ممكنة من كل أحدٍ،

(في هذا الوقت من أبي يوسف) أي من كلامه (في الفقه شيئًا) أي مسألة من مسائل الفقه (قالت لا) أي لا أحفظه (إلا أنه) أي أبا يوسف (كان يكرر) أي عادته المستمرة أن يكرر (ويقول سهم الدور ساقط فحفظ) أي محمد (ذلك منها) أي من الجارية (وكانت) أي والحال أن تلك المسألة كانت.

(مشكلة علىٰ محمد فارتفع إشكاله بهذه الكلمة) المستفادة من الجارية (فعلم أن الاستفادة ممكنة من كل أحد) وحكي أيضًا عن أبي حنيفة أنه كان يحج في كل سنة حتىٰ حج خمسًا وخمسين سنة وكان أصحابه يستقبلونه كل سنة فسنة من السنين كان حاجًّا فوقع مسألة الدور بالكوفة ودار السائل علىٰ الخلق فأخطئوا في ذلك وتكلم كل فريق بنوع فذكروا له ذلك حيث استقبلوه فقال رحمه الله تعالىٰ من غير روية ولا فكر أسقطوا السهم الدائر تصح المسألة صورته مريض وهب عبدًا له من مريض آخر وسلم إليه ثم إن الموهوب له وهب من الواهب الأول فسلم إليه ثم ماتا جميعًا ولا مال لهما غير ذلك العبد فإنه وقع فيه الدور لأنه متىٰ رجع إليه شيء من ذلك زاد في ماله وإذا زاد في ماله زاد في ثلثه وإذا زاد في ثلثه زاد فيما يرجع إليه وإذا زاد فيما يرجع إليه زاد في ثلثه ثم لا يزال كذلك فاحتيج إلىٰ حساب يمكن تصحيحه منه فتقول طريقه أن تطلب حسابًا له ثلث وللثلث ثلث وأقله تسعة ثم تقول صحت الهبة في ثلاثة منها ثم يرجع في الهبة الثانية من الثلث سهم إلىٰ الواهب الأول فهذا السهم هو سهم الدور فأسقطه من الأصل الذي هو تسعة يبقىٰ ثمانية فمنها تصح المسألة هذا معنىٰ قول أبي حنيفة أسقطوا السهم الدائر تصح المسألة فتصح الهبة الأولىٰ في ثلاثة من ثمانية والهبة الثانية في سهم فيحصل للواهب الأول ستة وهو ضعف ما صححنا في هبته وللواهب الثاني اثنان وهو ثلث ما أعطينا للواهب الأول فثبت بهذا الطريق أن طريق التصحيح إسقاط سهم الدور الذي هو واحد من التسعة.

ولهذا قال أبو يوسف حين قيل له: بم أدركت العلم؟ قال: ما استنكفت من الاستفادة وما بخلت بالإفادة، وقيل لابن عباس رضي الله تعالى عنهما: بم أدركت العلم؟ قال: بلسان سئولٍ، وقلب عقول.

وإنما سمي طالب العلم: ما تقول لكثرة ما كانوا يقولون في الزمان الأول: "ما تقول في هذه المسألة؟" وإنما تفقه أبو حنيفة بكثرة المطارحة، والمذاكرة في دكانه حين كان بزازًا، فبهذا يُعلم أن تحصيل العلم والفقه يجتمع مع الكسب، وكان أبو حفص الكبير يكتسب ويكرر العلوم.

فإن كان لابد لطالب العلم من الكسب لنفقة عياله وغيره فليكتسب وليكرر، ولا يكسل، وليس لصحيح البدن والعقل عذر في ترك التعلم والتفقه،

(ولهذا) أي ولأجل أن الاستفادة ممكنة من كل أحد (قال أبو يوسف حين قيل له بم) أي بماذا (أدركت العلم) أي وصلت إلى العلم (قال ما استنكفت من الاستفادة) من كل أحد (وما بخلت بالإفادة) لكل أحد وهذه الجملة مقول لقال (وقيل لابن عباس رضي الله تعالى عنهما بم أدركت العلم قال بلسان سئول) فعول أي مبالغ في السؤال.

(وقلب عقول) أي مبالغ في العقل (وإنما سمي طالب العلم) في الزمان الأول (ما تقول لكثرة ما كانوا يقولون في الزمان الأول ما تقول في هذه المسألة) وجملة ما تقولون مقول القول ليقولون (وإنما تفقه أبو حنيفة) أي ما صار أبو حنيفة فقيهًا إلا.

(بكثرة المطارحة والمذاكرة في دكانه حين كان بزازًا) يبيع البز في دكانه (فبهذا يعلم أن تحصيل العلم والفقه يجتمع مع الكسب) كما جمعه أبو حنيفة (وكان أبو حفص الكبير يكتسب) ما كفاه من الرزق (ويكرر العلوم) وهذا أيضًا شاهد في جواز اجتماع تحصيل العلم مع الكسب.

(فإن كان لابد لطالب العلم من الكسب لنفقة عياله) بكسر العين جمع عيل كجياد جمع جيد (وغيره) مما لزم عليه نفقته (فليكتسب وليكرر ولا يكسل وليس لصحيح البدن والعقل عذر في ترك العلم والتفقه) فإنه ما دام بدن الرجل صحيحًا وسالمًا من الأمراض وعقله كاملًا لا يكون له عذر في ترك التعلم بشيء من الأعذار من فقر وغيره.

فإنه لا يكون أفقر من أبي يوسف، ولم يمنعه ذلك من التفقه، فمن كان له مال كثير فنعم المال الصالح للرجل الصالح.

قيل لعالم: بم أدركت العلم؟ قال: بأب غنيٍّ؛ لأنه كان يصطنع به أهلَ العلم والفضل، فإنه سبب زيادة العلم لأنه شكرٌ علىٰ نعمة العقل والعلم، وأنه سبب الزيادة، قيل: قال أبو حنيفة: إنما أدركت العلم بالحمد لله تعالىٰ والشكر، فكلما فهمت ووقفت علىٰ فقهٍ وحكمةٍ فقلتُ: الحمد لله تعالىٰ، فازداد علمي، وهكذا ينبغي لطالب العلم أن يشتغل بالشكر باللسان والجنان والأركان والمال،

(فإنه) أي ذلك الرجل (لا يكون أفقر من أبي يوسف ولم يمنعه) أي أبا يوسف (ذلك) أي الفقر (من التفقه فمن كان له مال كثير فنعم المال الصالح للرجل الصالح) قوله فنعم المال الصالح خبر للمبتدأ بتقدير المقول أي فمن كان له مال كثير فمقول في حقه نعم المال الصالح الغير الفاسد بمخالطة الحرام للرجل الصالح يستعين به علىٰ تحصيل العلوم.

(قيل لعالم بم) أي بأي شيء (أدركت العلم قال بأب غني لأنه) أي الأب الغني (كان يصطنع) أي يحسن (به) أي بسبب الغنىٰ (أهل العلم والفضل فإنه) أي الإحسان (سبب زيادة العلم لأنه شكر علىٰ نعمة العقل والعلم وأنه) أي الشكر عليها.

(سبب الزيادة) أي زيادة النعمة حيثما ينبئ عنه قوله تعالىٰ ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] (قيل قال أبو حنفية) وهذه الجملة مقول القول للقيل (إنما أدركت العلم بالحمد لله تعالىٰ والشكر) أي ما وصلت إلىٰ هذه المرتبة من العلم إلا بالحمد لله تعالىٰ وثنائه وشكره في مقابلة نعمه.

(فكلما فهمت) أي شيئًا من العلوم (ووفقت) علىٰ صيغة المبني للمفعول أي جعلت موفقًا من عند الله تعالىٰ (علىٰ فقه وحكمة) أي معرفة من المعارف (فقلت الحمد لله تعالىٰ) هذه الجملة معطوفة علىٰ جملة فهمت (فازداد علمي) جواب كلما (وهكذا ينبغي لطالب العلم أن يشتغل بالشكر باللسان والجنان والأركان) أي الجوارح (والمال) أي يتصدق بالأموال الطيبة إلىٰ الفقراء.

ويرىٰ الفهم والعلم والتوفيق من الله تعالىٰ، ويطلب الهداية من الله تعالىٰ بالدعاء له والتضرع إليه، فإن الله هادٍ من استهداه، فأهل الحق وهم أهل السنة والجماعة طلبوا الحق من الله تعالىٰ الحق الهادي المبين العاصم، فهداهم الله تعالىٰ وعصمهم عن الضلالة، وأهل الضلالة أعجبوا برأيهم وعقلهم وطلبوا الحق من المخلوق العاجز وهو العقل؛ لأن العقل لا يدرك جميع الأشياء كالبصر لا يبصر جميع الأشياء فحجبوا وعجزوا وضلوا وأضلوا، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ»، فإذا عرف عجز نفسه عرف قدرة الله تعالىٰ.

ولا يعتمد علىٰ نفسه وعقله بل يتوكل علىٰ الله تعالىٰ ويطلب منه الحق، ومن يتوكل علىٰ الله فهو حسبه،

(ويرىٰ الفهم) أي يعتقد الفهم (والعلم والتوفيق من الله تعالىٰ ويطلب) بالنصب عطف علىٰ ويرىٰ (الهداية من الله تعالىٰ بالدعاء) متعلق بيطلب (له) أي لله تعالىٰ (والتضرع إليه فإن الله هاد من استهداه) أي من طلب الهداية منه تعالىٰ أي دال إياه علىٰ ما يوصل إلىٰ مقصوده من العلم وغيره.

(فأهل الحق وهم أهل السنة والجماعة طلبوا الحق) أي القول الصادق والفعل الصائب (من الله الحق) مجرور علىٰ أنه صفة لله تعالىٰ (الهادي المبين العاصم) صفات مترادفة ومعنىٰ العاصم الذي عصمهم عن الضلالة في الدين (فهداهم الله تعالىٰ وعصمهم عن الضلالة) يعني أعطاهم ما سألوا.

(وأهل الضلالة أعجبوا برأيهم وعقلهم وطلبوا الحق من المخلوق العاجز وهو العقل لأن العقل) علة كونه عاجزًا (لا يدرك جميع الأشياء كالبصر لا يبصر جميع الأشياء فحجبوا) علىٰ صيغة المبني للمفعول أي صاروا محجوبين عن معرفة الحق.

(وعجزوا) عن معرفته (وضلوا) أي كانوا ضالين (وأضلوا) غيرهم (قال رسول الله ﷺ من عرف نفسه فقد عرف ربه) أي من عرف نفسه بصفات المخلوقين من العجز والفناء والضعف والفقر فقد عرف ربه بصفات الخالق من القدرة لله تعالىٰ والبقاء والقوة والغنىٰ.

(فإذا عرف عجز نفسه عرف قدرة الله تعالىٰ ولا يعتمد علىٰ نفسه) الناطقة وهي الجوهر المجرد المعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف عند الحكماء وعند المتكلمين نفس الشيء ذاته وحقيقته (وعقله) وهو قوة للنفس تستعد بها للعلوم والادراكات (بل يتوكل علىٰ الله ويطلب منه الحق ومن يتوكل علىٰ الله فهو حسبه) أي كافيه وهذا القول وما بعده اقتباس من القرآن.

ويهديه إلىٰ صراط مستقيم، ومن كان له مال فلا يبخل، وينبغي أن يتعوذ بالله تعالىٰ من البخل.

قال النبي عليه الصلاة والسلام: «أَيُّ دَاءٍ أَدْوَأُ مِنَ الْبُخْلِ؟» وكان أبو الشيخ الإمام الأجل شمس الأئمة الحلواني فقيرًا يبيع الحلواء وكان يعطي الفقهاء من الحلواء، ويقول: ادعوا لابني، فببركة جوده واعتقاده وشفقته وتضرعه نال ابنه ما نال، ويشتري بالمال الكتب ويستكتب فيكون عونًا علىٰ التعلم والتفقه، وقد كان لمحمد بن الحسن مال كثير، حتىٰ كان له ثلاثمائة من الوكلاء علىٰ ماله، فأنفقه كله في العلم والفقه ولم يبق له ثوب نفيس فرآه أبو يوسف في ثوب خلق، فأرسل إليه ثيابًا نفيسة فلم يقبلها فقال: عُجِّل لكم وَأُجِّل لنا .

ولعله إنما لم يقبله

(ويهديه إلىٰ صراط مستقيم) وهو الدين الحق (ومن كان له مال) معطوف علىٰ قوله فيما سبق فمن كان له مال كثير (فلا يبخل) بالجزم نهي غائب لأن البخل عن الزكاة حرام والبخل عن الصدقات النوافل مذموم (وينبغي أن يتعوذ بالله تعالىٰ من البخل قال النبي عليه الصلاة والسلام أي داء أدوأ من البخل) يعني أي مرض يكون أشد من البخل.

(وكان أبو الشيخ الإمام الأجل شمس الأئمة الحلواني فقيرًا يبيع الحلواء وكان يعطي الفقهاء من الحلواء ويقول ادعوا لابني فببركة جوده واعتقاده وشفقته) بفتح الفاء (وتضرعه نال ابنه) أي وصل (ما نال) إيراد الموصول للتعظيم أي المرتبة العالية من العلم.

(ويشتري بالمال الكتب) بالنصب عطف علىٰ يتعوذ أي ينبغي أن يشتري الطالب المتمول بماله الكتب (ويستكتب) أي يطلب الكتابة من الغير بإعطاء المال (فيكون عونًا علىٰ التعلم والتفقه) باشتراء آلات العلم وأسبابه (وقد كان لمحمد بن الحسن مال كثير حتىٰ كان له ثلاثمائة من الوكلاء علىٰ ماله فأنفقه كله في العلم والفقه) أي في تحصيلهما باشتراء الكتب وإعطاء أجرة للمعلم وغيره.

(ولم يبق له ثوب نفيس) أي شريف (فرآه أبو يوسف في ثوب خلق) بفتح الخاء وكسر اللام صفة مشبهة وهو ما بلي من الثياب (فأرسل إليه ثيابًا نفيسة فلم يقبلها فقال) أي محمد (عجل لكم) أي أعطي لكم المال في الدنيا (وأجل لنا) أي أخر المال وادخر لنا في الآخر ة(ولعله) هذا الكلام للمصنف أي أظنه (إنما لم يقبله)أي ما أرسل.

-وإن كان قبول الهدية سنة- لما رأىٰ أن في ذلك مذلة لنفسه، قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ».

وحكي أن فخر الإسلام الأرسابندي جمع قشور البطيخ الملقاة في مكانٍ خالٍ فأكلها، فرأته جارية فأخبرت بذلك مولاها، فاتخذ له دعوة فدعاه إليها فلم يقبل لهذا، وهكذا ينبغي لطالب العلم أن يكون ذا همةٍ عالية لا يطمع في أموال الناس، قال عليه الصلاة والسلام:«إِيَّاكَ وَالطَّمَعَ فَإِنَّهُ فَقْرٌ حَاضِرٌ».

ولا يبخل بما عنده من المال، بل ينفق علىٰ نفسه وعلىٰ غيره، وقال النبي ﷺ: «النَّاسُ كُلُّهُمْ في الفَقْرِ مَخَافَةَ الفَقْرِ»، وكانوا في الزمان الأول يتعلمون الحرفة، ثم يتعلمون العلم حتىٰ لا يطمعوا في أموال الناس،

(وإن كان قبول الهدية سنة لما رأىٰ أن في ذلك مذلة لنفسه) وتذليل النفس غير جائز وأشار إلىٰ دليله بقوله (قال رسول الله صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم ليس للمؤمن أن يذل نفسه) أي يجعل نفسه ذليلة بإيقاعها في موقع المذلة والاستذلال (وحكي أن فخر الإسلام الأرسابندي جمع قشور) جمع قشر.

(البطيخ الملقاة) بالنصب صفة قشور (في مكان خال فأكلها فرأته) أي رأت هذا المذكور (جارية فأخبرت بذلك مولاها فاتخذ) أي المولىٰ (له) أي لفخر الإسلام (دعوة فدعاه إليها فلم يقبل لهذا) أي لذل نفسه (وهكذا ينبغي لطالب العلم أن يكون ذا همة عالية لا يطمع في أموال الناس) أي حال كونه غير طامع في أموالهم والطمع مذموم لطالب العلم وغيره خصوصًا للطالبين.

(قال عليه الصلاة والسلام إياك) أي اتق إياك (والطمع فإنه فقر حاضر) لا فقر يتوقع إتيانه لأن الرجل إذا طمع في الزيادة مع وجود ماله كان فقيرًا عاجلًا (ولا يبخل بما عنده من المال بل ينفق علىٰ نفسه وعلىٰ غيره) طالبًا لرضا الله تعالىٰ كائنًا من كان لأن الناس كلهم فقراء وأشار إلىٰ هذا بقوله.

(وقال النبي صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم الناس كلهم في الفقر مخافة الفقر) أي لأجل مخافة الفقر (وكانوا) أي الناس (في الزمان الأول يتعلمون الحرفة) أي الصناعة (ثم يتعلمون العلم حتىٰ لا يطمعوا في أموال الناس) بقناعتهم بالمال الحاصل من الحرفة.

وفي الحكمة: «مَنِ اسْتَغْنَىٰ بِمَالِ النَّاسِ افْتَقَرْ»، والعالم إذا كان طماعًا لا يبقىٰ له حرمة العلم، ولا يقول بالحق، ولهذا كان يتعوذ صاحب الشرع عليه السلام ويقول: «أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ طَمَعٍ يُدْنِي إِلَىٰ طَبَعٍ».

وينبغي ألا يرجو إلا من الله تعالىٰ، ولا يخاف إلا منه، ويظهر ذلك بمجاوزة حد الشرع وعدمها، فمن عصىٰ الله تعالىٰ خوفًا من المخلوق فقد خاف غير الله تعالىٰ، فإذا لم يعص الله تعالىٰ لخوف المخلوق وراقب حدود الشرع فلم يخف غير الله تعالىٰ، بل خاف الله تعالىٰ، وكذا في جانب الرجاء.

(وفي الحكمة) أي ورد في الكلمات الدالة علىٰ الحكمة (من استغنىٰ) أي طلب الغنىٰ (بمال الناس افتقر) أي يكون فقيرًا (والعالم إذا كان طماعًا) أي كثير الطمع (لا يبقىٰ له) من الإبقاء (حرمة العلم) بسبب الابتذال وعرض الاحتياج إلىٰ الأدنىٰ (ولا يقول) أي لا يحكم.

(بالحق ولهذا) أي ولأجل أن الطمع يؤدي إلىٰ ما ذكر (كان يتعوذ صاحب الشرع عليه السلام ويقول أعوذ بالله من طمع يدني) أي يقرب (إلىٰ طبع) بالتحريك: الشين والعيب (وينبغي أن لا يرجو إلا من الله تعالىٰ ولا يخاف إلا منه ويظهر ذلك) أي عدم الرجاء إلا من الله تعالىٰ وعدم الخوف إلا من الله.

(بمجاوزة حد الشرع وعدمها) أي عدم المجاوزة وهذا الكلام مجمل فصله بقوله (فمن عصىٰ الله تعالىٰ خوفًا من المخلوق فقد خاف غير الله تعالىٰ) أي من غير الله تعالىٰ حذف من كما في قوله تعالىٰ ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ [الأعراف: ١٥٥]. أي من قومه.

(فإذا لم يعص الله تعالىٰ لخوف المخلوق وراقب حدود الشرع) أي حافظ عليها والمراد بحدود الشرع أوامر الله ونواهيه (فلم يخف غير الله تعالىٰ)جواب إذا (بل خاف الله تعالىٰ وكذا في جانب الرجاء) يعني أن من عصىٰ الله تعالىٰ رجاء من المخلوق فقد رجا غير الله تعالىٰ وإذا لم يعص الله لرجاء المخلوق بل أطاع الله تعالىٰ وراقب حدود الشرع لم يكن راجيًا إلا من الله تعالىٰ.

وينبغي لطالب العلم أن يَعُدَّ ويقدر لنفسه تقديرًا في التكرار؛ فإنه لا يستقر قلبه حتى يبلغ ذلك المبلغ.

وينبغي أن يكرر سبق الأمس خمس مراتٍ، وسبق اليوم الذي قبل الأمس أربع مرات، والسبق الذي قبله ثلاثًا، والذي قبله اثنين، والذي قبله واحدًا، فهذا أدعى إلى الحفظ.

وينبغي ألا يعتاد المخافتة في التكرار؛ لأن الدرس والتكرار ينبغي أن يكون بقوةٍ ونشاط ولا يجهر جهرًا ولا يجهد نفسه كيلا ينقطع عن التكرار، فخير الأمور أوسطها.

حكي أن أبا يوسف كان يذاكر الفقه مع الفقهاء بقوةٍ ونشاطٍ، وكان صِهرُهُ يتعجب في أمره ويقول: أنا أعلم أنه جائع منذ خمسة أيام ومع ذلك

(وينبغي لطالب العلم أن يعد) من العد (ويقدر لنفسه تقديرًا في التكرار) أي في تكرر سبقه ودرسه يعني عين مقدارًا من العدد فكرر وأعاد درسه بمقداره (فإنه لا يستقر قلبه) ولا تنتقش الصور الحاصلة في ذهنه (حتى يبلغ ذلك المبلغ) أي ذلك المقدار الذي عينه في تكرار الدرس.

(وينبغي أن يكرر سبق الأمس خمس مرات وسبق اليوم الذي قبل الأمس أربع مرات والسبق الذي قبله ثلاثًا والذي قبله اثنين والذي قبله واحدًا فهذا) أي عدد التكرار على هذا الترتيب (أدعى) أي أشد دعوة وتأديًا (إلى الحفظ وينبغي أن لا يعتاد المخافتة) بضم الميم مصدر من الإخفات لا من الخوف.

(في التكرار) أي تكرار الدرس (لأن الدرس والتكرر ينبغي أن يكون بقوة ونشاط) أي سرور وطيب نفس والمخافتة تنافي التكرار على وجه القوة والنشاط (ولا يجهر جهرًا ولا يجهد نفسه) أي يشق بها (كيلا ينقطع) أي النفس (عن التكرار فخير الأمور أوسطها) أي ما كان بين الجهر والإخفاء.

(حكي أن أبا يوسف كان يذاكر الفقه مع الفقهاء بقوة ونشاط) كما هو اللائق لطالب العلم (وكان صهره) أي زوج ابنته أو زوج أخته عنده (يتعجب في أمره) أي في شأن أبي يوسف (ويقول أنا أعلم أنه جائع منذ خمسة أيام ومع ذلك) أي مع الجوع مقدار هذا الزمان.

إنه يناظر مع القوة والنشاط.

وينبغي ألا يكون لطالب العلم فترة وتحير فإنها آفة، وكان أستاذنا شيخ الإسلام برهان الدين يقول: إنما غلبت شركائي بأني لم يقع لي الفترة والاضطراب في التحصيل.

وكان يُحكى عن شيخ الإسلام الإسبيجابي أنه وقع له في تحصيله وتعلمه فترة اثنتي عشرة سنة بانقلاب الملك، وخرج مع شريكه في المناظرة ولم يتركا المناظرة وكان يجلسان في المناظرة كل يوم ولم يتركا الجلوس للمناظرة اثنتي عشرة سنة فصار شريكه شيخ الإسلام للشافعيين، وهو كان شافعيًّا، وكان أستاذنا الشيخ القاضي الإمام فخر الإسلام قاضي خان يقول: ينبغي للمتفقه أن يحفظ نسخة واحدة من نسخ الفقه دائمًا فيتيسر له بعد ذلك حفظ ما سمع من الفقه.

(أنه يناظر مع القوة والنشاط وينبغي أن لا يكون لطالب العلم فترة) أي اضطراب (وتحير فإنها آفة) مانعة للتحصيل (وكان أستاذنا شيخ الإسلام برهان الدين يقول إنما غلبت شركائي بأني لم يقع لي الفترة والاضطراب في التحصيل) أي في زمانه(وكان يحكى عن شيخ الإسلام الإسبيجاني أنه وقع في تحصيله وتعلمه فترة اثنتي عشرة سنة بانقلاب الملك) أي بسبب انعزال سلطان زمانه وجلوس آخر مكانه.

(وخرج مع شريكه في المناظرة) أي في محل المناظرة (ولم يتركا المناظرة وكانا يجلسان في المناظرة كل يوم ولم يتركا الجلوس للمناظرة اثنتي عشرة سنة فصار شريكه شيخ الإسلام للشافعيين) أي صار مفتيًا ومقتدىً لهم (وهو) أي شريكه.

(كان شافعيًّا وكان أستاذنا الشيخ القاضي الإمام فخر الإسلام قاضي خان يقول ينبغي للمتفقه) أي لمن أراد أن يحصل علم الفقه (أن يحفظ نسخة واحدة من نسخ الفقه دائمًا فيتيسر له بعد ذلك) أي حفظ نسخة من الفقه (حفظ ما سمع من الفقه).

فصل في التوكل

ثُم لابُدَّ لطالب العلم من التوكل في طلب العلم، ولا يهتم لأمر الرزق، ولا يشغل قلبه بذلك، روى أبو حنيفة رحمة الله عليه عن عبد الله بن الحسن الزبيدي صاحب رسول الله ﷺ: "من تفقه في دين الله كفاه الله همَّه ورزقَه من حيث لا يحتسب"؛ فإن من شُغل قلبه بأمر الرزق من القوت والكسوة قلما يتفرغ لتحصيل مكارم الأخلاق، ومعالي الأمور، قيل:

دَعِ المَكَـــارِمَ لَا تَرْحَـــلْ لِبُغْيَتِهَـــا وَاقْعُدْ فَإِنَّـكَ أَنْـتَ الطَّـاعِمُ الكَـاسِي

قال رجل لمنصور الحلاج: أوصني، فقال: "هي نفسك

(فصل في التوكل)

أي تفويض الأمر إلى الله تعالى (ثم لابد لطالب العلم من التوكل في طلب العلم ولا يهتم) أي ولا يغتم (لأمر الرزق ولا يشغل) من الإشغال (قلبه بذلك) أي بتحصيل الرزق (روى أبو حنيفة رحمة الله عليه عن عبد الله بن الحسن الزبيدي) أي المنسوب إلى زبيد اسم قبيلة.

(صاحب رسول الله ﷺ) أي هو من أصحاب رسول الله ﷺ (من تفقه) وهذه الجملة مع آخرها مفعول روى (في دين الله) أي من صار عالمًا بأحكام الشرع في دين الإسلام (كفاه الله همه) أي مقصوده (ورزقه من حيث لا يحتسب) أي من مكان لا يظن الرزق منه.

(فإن من شغل قلبه) بالرفع نائب فاعل شغل (بأمر الرزق من القوت والكسوة قلما يتفرغ) أي لا يتفرغ يجوز أن تكون القلة كناية عن العدم (لتحصيل مكارم الأخلاق ومعالي الأمور) أي أشراف الأمور وخيارها (قيل دع المكارم) أي اتركها (لا ترحل) أنت (لبغيتها) أي لا تسافر أنت لطلبها (واقعد) عن دعوى المكارم.

(فإنك أنت الطاعم الكاسي) أي أنت ذو طعام وكسوة ومشغول لتحصيلها فأنى يتيسر لك تحصيل المكارم (قال رجل لمنصور الحلاج أوصني فقال) أي منصور (هي) أي الوصية ويجوز أن يكون أمرًا من هيئ بمعنى أصلح (نفسك) خبر المبتدأ أي ما أوصي إليك نفسك.

إن لم تشغلها شغلتك"، فينبغي لكل أحدٍ أن يشغل نفسه بأعمال الخير؛ حتى لا تشتغل نفسه بهواها، ولا يهتم العاقل لأمر الدنيا؛ لأن الهم والحزن لا يرد المصيبة ولا ينفع، بل يضر القلب والعقل والبدن، ويخل بأعمال الخير، ويهتم لأمر الآخرة؛ لأنه ينفع، وأما قوله عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ مِنَ الذُّنُوبِ ذُنُوبًا لَا يُكَفِّرُهَا إِلَّا هَمُّ المَعِيشَةِ»، فالمراد منه قدر هم لا يخل بأعمال الخير، ولا يشغل القلب شغلًا يخلُّ بإحضار القلب في الصلاة، فإن ذلك القدر من الهم والقصد من أعمال الآخرة، ولابد لطالب العلم من تقليل العلائق الدنيوية بقدر الوسع؛ ولهذا اختاروا الغربة، ولابد من تحمل المشقة والنَّصَب

(إن لم تشغلها) وتستعملها في طلب المكارم (شغلتك) أي شغلت نفسك إياك باتباع مراداتها (فينبغي لكل أحد أن يشغل) من الإشغال (نفسه) منصوب على أنه مفعول يشغل (بأعمال الخير حتى لا تشتغل نفسه بهواها) لما أن أعمال الخير تمنع الاتباع بالهوى لأنهما متضادان متى وجد أحدهما امتنع الآخر.

(ولا يهتم العاقل لأمر الدنيا لأن الهم والحزن لا يرد المصيبة ولا ينفع) بل يقع ما قدره الله تعالى (بل يضر القلب والعقل والبدن ويخل بأعمال الخير) لانتفاء فراغ القلب (ويهتم لأمر الآخرة لأنه) أي أمر الآخرة (ينفع) إياه في الآخرة.

(وأما قوله عليه الصلاة والسلام) جواب عن سؤال مقدر كأنه قيل أنت قلت أن العاقل لا ينبغي له أن يهتم لأجل الدنيا فكيف قال رسول الله ﷺ (إن من الذنوب ذنوبًا لا يكفرها إلا هم المعيشة) أي الاضطراب لأجل معيشة العيال (فالمراد منه قدر هم لا يخل بأعمال الخير ولا يشغل القلب شغلًا يخل بإحضار القلب في الصلاة فإن ذلك القدر من الهم والقصد) أي ذلك القدر اليسير من الهم.

(من أعمال الآخرة) خبر إن لتوقف أعمال الآخرة عليه إذا لا تحصل الأعمال إلا بالمعيشة (ولابد لطالب العلم من تقليل العلائق الدنيوية بقدر الوسع) أي بقدر الطاقة و(لهذا) أي ولأجل تقليل العلائق (اختاروا) أي العلماء (الغربة) لأن الغريب تقل علائقه بانقطاعه واعتزاله عن الخلق (ولابد لطالب العلم من تحمل المشقة والنصب) عطف تفسير للمشقة.

في سفر التعلم، كما قال موسىٰ في سفر التعلم، ولم ينقل عنه ذلك في غيره من الأسفار: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢] ليعلم أن سفر التعلم لا يخلو عن التعب؛ لأن طلب العلم أمرٌ عظيم، وهو أفضل من الغزوات عند أكثر العلماء، والأجر علىٰ قدر التعب والنصب، فمن صبر علىٰ ذلك وجد لذة العلم تفوق سائر لذات الدنيا، ولهذا كان محمد بن الحسن إذا سهر الليالي انحل له المشكلات يقول: أين أبناء الملوك من هذه اللذات؟

وينبغي لطالب العلم ألا يشتغل بشيءٍ آخر غير العلم ولا يُعرِض عن الفقه.

قال محمد رحمه الله تعالىٰ: إن صناعتنا هذه من المهد إلىٰ اللحد، فمن أراد أن يترك علمنا هذا

(في سفر التعلم) أي في السفر الكائن لأجل التعلم (كما قال موسىٰ عليه الصلاة والسلام في سفر التعلم ولم ينقل عنه ذلك في غيره) أي في غير سفر التعلم (من الأسفار ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾) [الكهف: ٦٢] مقول القول لقال (ليعلم) متعلق بقال (أن سفر التعلم لا يخلو عن التعب لأن طلب العلم أمر عظيم) فسفره أيضًا عظيم.

(وهو أفضل من الغزوات عند أكثر العلماء والأجر علىٰ قدر التعب والنصب) فأي سفر يكون التعب والنصب فيه أشد فثوابه يكون أكثر (فمن صبر علىٰ ذلك) أي التعب والنصب (وجد لذة العلم تفوق) أي تعلو (سائر لذات الدنيا ولهذا كان محمد بن الحسن إذا سهر الليالي) بالنصب علىٰ أنه مفعول سهر أي إذا سهر ولم ينم في الليالي.

(انحل له المشكلات) جواب إذا (يقول أين أبناء الملوك من هذه اللذات) يعني أن أبناء الملوك بمنزل بعيد من اللذات لأنها لذات علمية لا يعرفها الجاهلون ولو كانوا أبناء الملوك (وينبغي لطالب العلم أن لا يشتغل بشيء آخر غير العلم ولا يعرض عن الفقه قال محمد رحمه الله تعالىٰ إن صناعتنا هذه من المهد إلىٰ اللحد فمن أراد أن يترك علمنا هذا) أي علم الفقه وإضافة هذا العلم إلىٰ نفسه لكثرة الاشتغال به كأنه اختص به.

ساعة فليتركه الساعة.

ودخل فقيه وهو إبراهيم بن الجراح على أبي يوسف يعوده في مرض موته، وهو يجود بنفسه، فقال أبو يوسف له: رمي الجمار راكبًا أفضل أم راجلًا؟ فلم يعرف الجواب، فأجاب بنفسه وهو أن الرمي ماشيًا أحب في الأولين، وهكذا ينبغي للفقيه أن يشتغل به في جميع أوقاته فحينئذ يجد لذة عظيمة في ذلك، وقيل: رُؤِيَ محمد في المنام بعد وفاته، فقيل له: كيف كنت في حال النزع؟ فقال: كنت متأملًا في مسألةٍ من مسائل المكاتب فلم أشعر بخروج روحي، وقيل: إنه قال في آخر عمره: شغلني مسائل المكاتب عن الاستعداد لهذا اليوم، وإنما قال ذلك تواضعًا.

(ساعة فليتركه الساعة) فليتركه الزمان بأن لا يجري عليه بموته وهذا دعاء عليه (ودخل فقيه وهو إبراهيم بن الجراح على أبي يوسف يعوده) أي حال كونه عائدًا له (في مرض موته وهو يجود) من جاد (بنفسه) إذا قارب أن يقبض والحال أن أبا يوسف حينئذ يقرب أن يقبض روحه.

(فقال أبو يوسف له رمي الجمار) مبتدأ بحذف حرف الاستفهام بقرينة أم الواقعة بعده أي أَرَمْيُ الجمار في مواقعها أيام الحج (راكبًا) أي حال كونه راكبًا (أفضل أم راجلًا) أي ماشيًا (فلم يعرف) أي إبراهيم بن الجراح (الجواب فأجاب بنفسه وهو أن الرمي ماشيًا أحب في الأولين) أعني ما يلي مسجد الخيف ثم ما يليه لا في الثالث وهو العقبة فإن الرمي فيها راكبًا أفضل.

(وهكذا ينبغي للفقيه أن يشتغل به) أي بعلم الفقه (في جميع أوقاته فحينئذ يجد لذة عظيمة في ذلك) أي في اشتغاله بعلم الفقه (وقيل رؤي محمد في المنام بعد وفاته فقيل له كيف كنت) بصيغة الخطاب (في حال النزع) أي في حال خروج الروح (فقال كنت متأملًا في مسألة من مسائل المكاتب فلم أشعر) الشعور أدنى العلم أي لم أعلم بالكلية.

(بخروج روحي) لفرط اشتغالي بها (وقيل إنه) أي محمد بن الحسن (قال في آخر عمره شغلني) أي منعني (مسائل المكاتب) أي الاشتغال بها (عن الاستعداد لهذا اليوم) أي عن إحضار العدة ليوم الموت (وإنما قال ذلك تواضعًا) وهضمًا وإظهارًا لكمال افتقاره إلى فضل الله ورحمته وإلا فأي استعداد فوق استعداده وهو إمام الأمة وهمام الملة..

فصل
في وقت التحصيل

قيل: وقت التعلم من المهد إلى اللحد، دخل الحسن بن زياد في التفقه وهو ابن ثمانين سنة ولم يبت على الفراش أربعين سنة فأفتى بعد ذلك أربعين سنة وأفضل الأوقات شرخ الشباب ووقت السَّحَر وبين العشاءين.

وينبغي أن يستغرق جميع أوقاته، فإذا ملَّ من علمٍ يشتغل بعلمٍ آخر، وكان ابن عباس رضي الله تعالى عنهما إذا مل من الكلام يقول: هاتوا ديوان الشعراء، وكان محمد بن الحسن لا ينام الليل، وكان يضع عنده دفاتر. وكان إذا مل من نوعٍ ينظر في نوعٍ آخر.

فكان يضع عنده الماء ويزيل نومه بالماء، وكان يقول: النوم من الحرارة فلابد من دفعه بالماء البارد.

(فصل في وقت التحصيل)

أي في بيان زمان تحصيل العلم (قيل وقت التعلم من المهد إلى اللحد) أي من وقت الصغر إلى الموت لقوله صلى الله تعالى عليه وسلم «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد» (دخل الحسن بن زياد) وهو تلميذ أبي حنيفة رحمة الله عليه (في التفقه) أي في تحصيل علم الفقه.

(وهو ابن ثمانين سنة) أي في حال بلوغ عمره ثمانين سنة (ولم يبت) أي لم ينم (على الفراش أربعين سنة فأفتى بعد ذلك أربعين سنة) فصار كل عمره مائة وستين سنة فظهر من هذا أن طلب العلم لازم وإن كان عمره بلغ إلى ثمانين سنة (وأفضل الأوقات) أي أوقات الطلب.

(شرخ الشباب) أي أوله (ووقت السحر وبين العشاءين) أي المغرب والعشاء ولكن غلب العشاء على المغرب (وينبغي أن يستغرق) أي طالب العلم (جميع أوقاته فإذا مل) أي صار ملولًا وكسلان (من علم يشتغل بعلم آخر) فإن لكل علم لذة تغاير لذة العلم الآخر.

(وكان ابن عباس رضي الله تعالى عنهما إذا مل من الكلام يقول هاتوا) أي ائتوا (ديوان الشعراء وكان محمد بن الحسن لا ينام الليل وكان يضع عنده دفاتر وكان إذا مل من نوع ينظر في نوع آخر) ليزيل ملالته (فكان يضع عنده الماء ويزيل نومه بالماء وكان يقول النوم من الحرارة فلابد من دفعه بالماء البارد).

فصل
في الشفقة والنصيحة

وينبغي أن يكون صاحب العلم مشفقًا ناصحًا غير حاسدٍ، فالحسد يضر ولا ينفع، وكان أستاذنا شيخ الإسلام برهان الدين رحمة الله تعالى عليه يقول: قالوا: إن ابن المعلم يكون عالمًا؛ لأن المعلم يريد أن يكون تلاميذه في القرآن علماء، فببركة اعتقاده وشفقته يكون ابنه عالمًا، وكان يُحكى أن الصدر الأجل برهان الأئمة جعل وقت السبق لابنيه الصدر الشهيد حسام الدين، والصدر السعيد تاج الدين وقت الضحوة الكبرى، بعد جميع الأسباق، فكانا يقولان: إن طبيعتنا تكل وتمل

(فصل: في الشفقة والنصيحة)

(وينبغي أن يكون صاحب العلم مشفقًا) أي ذا شفقة ومرحمة (ناصحًا) أي مريدًا للخير (غير حاسد) أي غير مريد لزوال نعمة الغير (فالحسد يضر ولا ينفع وكان أستاذنا شيخ الإسلام برهان الدين رحمة الله تعالى عليه يقول قالوا) أي العلماء وجملة قالوا مع قولها مقول القول ليقول.

(أن ابن المعلم يكون عالمًا لأن المعلم يريد أن يكون تلاميذه في القرآن) متعلق بقوله (علماء فببركة اعتقاده وشفقته) لتلاميذه (يكون ابنه عالمًا وكان يحكى) بصيغة المبني للمفعول.

(أن الصدر الأجل برهان الأئمة جعل وقت السبق) أي تعلم السبق (لابنيه الصدر الشهيد) بدل من ابنيه (حسام الدين) عطف بيان للصدر الشهيد (والصدر السعيد تاج الدين وقت الضحوة الكبرى) مفعول ثان لجعل.

(بعد جميع الأسباق) جمع سبق أي بعد جميع إسباق المتعلمين وهو بدل من وقت الضحوة (فكانا) أي ابناه (يقولان إن طبيعتنا تكل) بكسر الكاف وتشديد اللام من الكلال أي تفتر (وتمل) أي تصير ذات ملال.

في ذلك الوقت، فقال أبوهما: إن الغرباء وأولاد الكبراء يأتونني من أقطار الأرض، فلابد من أن أقدم أسباقهم فببركة شفقته فاق ابناهُ علىٰ أكثر فقهاء أهل الأرض في ذلك العصر في الفقه.

وينبغي ألا ينازع أحدًا، ولا يخاصمه؛ لأنه يضيع أوقاته، قيل: المحسن سيجزىٰ بإحسانه، والمسيء سيكفيه مساويه، أنشدني الشيخ الإمام الأجل الزاهد العارف ركن الدين محمد بن أبي بكر المعروف بإمام خواهر زاده المفتي رحمة الله عليه، قال: أنشدني سلطان الشريعة يوسف الهمداني هذا الشعر:

دَعِ المَرْءَ لا تَجْزِهِ عَلَىٰ سُوءِ فِعْلِهِ سَيَكْفِيهِ مَا فِيهِ وَمَا هُوَ فَاعِلُهْ

(في ذلك الوقت فقال أبوهما إن الغرباء وأولاد الكبراء يأتونني من أقطار الأرض) أي من أطرافها جمع قطر بضم القاف وهو الطرف (فلابد من أن أقدم أسباقهم فببركة شفقته فاق ابناه) أي صارا عالمين غالبين (علىٰ أكثر فقهاء أهل الأرض) الكائنين (في ذلك العصر في الفقه) قوله في الفقه متعلق بفاق.

(وينبغي ألَّا ينازع أحدًا ولا يخاصمه لأنه) أي التنازع والتخاصم (يضيع) من التضييع (أوقاته) بأن صرفها إلىٰ أمر غير مفيد (قيل المحسن سيجزىٰ) علىٰ صيغة المبني للمفعول (بإحسانه) أي سيعطىٰ جزاءه في مقابلة إحسانه إلىٰ الدنيا.

(والمسيء سيكفيه مساويه) أي سيكفيه قبائحه التي عملها يعني تتضرر نفسه بضرر تلك القبائح التي قصد بها ضرر الغير ويرجع وبالها إليه، وورد في الأخبار والحكايات ما يدل علىٰ صدق هذا الكلام (أنشدني) أي قرأ عليَّ (الشيخ الإمام الأجل الزاهد العارف ركن الدين محمد بن أبي بكر المعروف بإمام خواهر زاده المفتي رحمة الله عليه قال أنشدني سلطان الشريعة يوسف الهمداني هذا الشعر دع المرء) أي اتركه.

(لا تجزه) من الجزاء أي لا تجازه (علىٰ سوء فعله) وهذه الجملة استئناف كأنه قيل ما معنىٰ ترك الرجل فأجاب بأنك لا تجزه علىٰ سوء فعله بل خل سبيله (سيكفيه ما فيه) من القبائح (وما هو فاعله) يعني يكفيه فعله القبيح ويرجع وباله إليه.

قيل: من أراد أن يرغم أنف عدوه فليكرر هذا الشعر وأُنْشدت:

إِذَا شِـئْتَ أَنْ تَلْقَـىٰ عَـدُوَّكَ رَاغِـمًا وَتَقْتُلَــهُ غَــمًّا وَتَحْرِقَــهُ هَــمًّا

فَـرُمْ لِلْعُـلَا وَازْدَدْ مِـنَ العِلْـمِ إِنَّـهُ مَـنِ ازْدَادَ عِلْـمًا ازْدَادَ حَاسِـدُهُ غَـمًّا

قيل: عليك أن تشتغل بمصالح نفسك لا بقهر عدوك، فإذا أقمت مصالح نفسك تضمن ذلك قهر عدوك، وإياك والمعاداة فإنها تفضحك وتضيع أوقاتك، وعليك بالتحمل، لا سيما من السفهاء، قال عيسىٰ ابن مريم عليه الصلاة والسلام:

"احتملوا من السفيه واحدة كي تربحوا عشرًا"،

(قيل من أراد أن يرغم أنف عدوه) وهذا كناية عن قهر العدو وتحقيره (فليكرر هذا الشعر وأنشدت) علىٰ صيغة المجهول (إذا شئت أن تلقىٰ عدوك راغمًا) حال كونك راغمًا ومحقرًا إياه (وتقتله غمًّا) أي لأجل الغم.

(وتحرقه) من الإحراق (همًّا) أي حزنًا (فرم) أمر حاضر من الروم والطلب أي اطلب (للعلا) في العلم وهذه الجملة جواب إذا (وازدد من العلم إنه) أي لأنه والضمير للشأن (من ازداد علمًا) تمييز أي من جهة العلم (ازداد حاسده غمًّا قيل عليك) أي الزم.

(أن تشتغل بمصالح نفسك لا بقهر عدوك فإذا أقمت) أي أديت وحصلت (مصالح نفسك تضمن ذلك قهر عدوك) لأن العدو إذا رأىٰ مصالحك حاصلة وأمورك منظمة اغتم واضطرب أشد اضطراب فكان ذلك قهرًا له (وإياك) أي اتق (والمعاداة) أي العداوة بالغير (فإنها) أي المعاداة.

(تفضحك وتضيع أوقاتك) لأنك إذا اشتغلت بالعداوة وبأسبابها تشغلك عن العبادة وتفرق في خواطرك فلا تقدر علىٰ تحصيل العلم فتضيع أوقاتك (وعليك بالتحمل) أي بتحمل الجور والأذىٰ (لا سيما من السفهاء قال عيسىٰ ابن مريم عليه الصلاة والسلام احتملوا من السفيه واحدة كي تربحوا عشرًا) أي احتملوا من السفيه أذية واحدة كي تتخلصوا من عشر.

شعر:

بَلَوْتُ النَّاسَ قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ فَلَمْ أَرَ غَيْرَ خَتَّالٍ وَقَالِي
وَلَمْ أَرَ فِي الخُطُوبِ أَشَدَّ وَقْعًا وَأَصْعَبَ مِنْ مُعَادَاةِ الرِّجَالِ
وَذُقْتُ مَرَارَةَ الأَشْيَاءِ طُرًّا وَمَا ذُقْتُ أَمَرَّ مِنَ السُّؤَالِ

وإياك وأن تظن بالمؤمنين سوءًا فإنه منشأ العداوة، ولا يحل ذلك لقوله ﷺ: «ظُنُّوا بِالمُؤْمِنِينَ خَيْرًا»، وإنما ينشأ ذلك من خبث النية، وسوء السريرة كما قال أبو الطيب:

إِذَا سَاءَ فِعْلُ المَرْءِ سَاءَتْ ظُنُونُهُ وَصَدَّقَ مَا يَعْتَادُهُ مِنْ تَوَهُّمِ
وَعَادَىٰ مُحِبِّيهِ بِقَوْلِ عُدَاتِهِ وَأَصْبَحَ فِي لَيْلٍ مِنَ الشَّكِّ مُظْلِمِ

(شعر – بلوت) أي اختبرت وامتحنت (الناس قرنًا بعد قرن) أي زمانًا بعد زمان (فلم أر) من الرؤية (غير ختال وقالي) أي غير غدار ومبغض (ولم أر في الخطوب) جمع خطب بفتح الخاء وسكون الطاء وهو الأمر العظيم أي ولم أر في الأمور العظام (أشد وقعًا) أي شيئًا أشد تأثيرًا.

(وأصعب) بالنصب عطف علىٰ أشد (من معاداة الرجال) أي من عداوة بعضهم لبعض (وذقت) علىٰ صيغة المتكلم من الذوق (مرارة الأشياء طرًّا) أي جميعًا (وما ذقت) شيئًا (أمر من السؤال) أي ليس شيء أشد مرارة من السؤال وعرض الاحتياج.

(كما قال أبو الطيب شعر – إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه) يعني إذا قبح فعل الإنسان قبحت ظنونه فينبغي حسن ظنه بأصدقائه (وصدق ما يعتاده من توهم) أي صدق ما يعتاده من توهم وخاطر يخطر علىٰ قلبه (وعادىٰ محبيه) أي أظهر المعاداة علىٰ محبيه (بقول عداته) في حق الأحبة قولًا فاسدًا.

(وأصبح في ليل من الشك مظلم) أي صار في حق الأحباء في شك مظلم كالليل يعني يشك في صداقة أحبائه وكمال مودتهم له بقول الأعداء بناء علىٰ ما قيل من يسمع يخل

وأنشدت لبعضهم:

تَــنَحَّ عَــنِ القَبِــيحِ وَلَا تُــرِدْهُ وَمَــنْ أَوْلَيْتَــهُ حَــسَنًا فَــزِدْهُ
سَــتُكْفَى مِــنْ عَــدُوِّكَ كُــلَّ كَيْــدٍ إِذَا كَــادَ العَــدُوُّ فَــلَا تَكِــدْهُ

وأنشدت للشيخ العميد أبي الفتح البستي رحمه الله تعالى:

ذُو العَقْــلِ لَا يَسْلَمُ مِــنْ جَاهِــلٍ يَــسُومُهُ ظُلْــمًا وَإِعْنَاتَــا
فَلْيَخْــتَرِ الــسِّلْمَ عَــلَىٰ حَرْبِــهِ وَلْيَلْــزَمِ الإِنْــصَاتَ إِنْ صَــاتَا

***

(وأنشدت لبعضهم تنح عن القبيح ولا ترده) بل اتركه بالكلية (ومن أوليته) أي أعطيته (حسنًا) أي شيئًا حسنًا من الإنعام.

(فزده) أي ما أعطيته (ستكفى) بصيغة المخاطب المبنية للمفعول أي سيكفيك الله تعالىٰ (من عدوك كل كيد) أي جميع مكره وحيله فيرجع إليه ضرره (إذا كاد) من الكيد (العدو فلا تكده) أي تكده أنت بل فوضه لله تعالىٰ فيجازيه (وأنشدت للشيخ العميد أبي الفتح البستي رحمه الله تعالىٰ ذو العقل لا يسلم من جاهل) أي لا يخلص من كيد جاهل ومكره للمعاداة الواقعة بينهما علىٰ ما ينبئ عنه المرء عدو لما جهل.

(يسومه) أي يكلفه العمل الشاق (ظلمًا) مفعول له أي لأجل الظلم (وإعناتًا) يقال أعنته أي أوقعه فيما لا يستطيع الخروج منه (فليختر السلم) بكسر السين أي الصلح (علىٰ حربه) أي فليختر ذو العقل الصلح علىٰ حرب الجاهل (وليلزم الإنصات) أي السكوت (إن صاتا) الألف للإشباع أي إن حمل وصاح الجاهل فيلزم العاقل السكوت ولا يقابله لأن جواب الأحمق السكوت وفيه من الجناس التام ما لا يخفىٰ..

فصل

في الاستفادة

وينبغي أن يكون طالب العلم مستفيدًا في كل وقت حتى يحصل له الفضل، وطريق الاستفادة أن يكون معه في كل وقت محبرة حتى يكتب ما يسمع من الفوائد العلمية، قيل: من حفظ فرَّ، ومن كتب شيئًا قرَّ، وقيل: العلم ما يؤخذ من أفواه الرجال؛ لأنهم يحفظون أحسن ما يسمعون، ويقولون أحسن ما يحفظون.

وسمعت الشيخ الأديب الأستاذ زين الإسلام المعروف بالأديب المختار يقول: قال هلال بن يسار: رأيت النبي ﷺ يقول لأصحابه شيئًا من العلم والحكمة، فقلت: يا رسول الله، أعد لي ما قلت لهم! فقال لي: «هَلْ مَعَكَ مَحْبَرَةٌ؟» فقلت: ما معي محبرة!

(فصل في الاستفادة)

و(ينبغي أن يكون طالب العلم مستفيدًا) أي طالبًا لفائدة العلم (في كل وقت حتى يحصل له الفضل) والكمال في العلم (وطريق الاستفادة أن يكون معه) أي مع الطالب (في كل وقت محبرة) أي وعاء المداد (حتى يكتب ما يسمع من الفوائد العلمية قيل من حفظ فر) أي من حفظ شيئًا فر ذلك الشيء ممن حفظه، فحذف المفعول لظهوره.

(ومن كتب شيئًا قر) أي استقر ذلك الشيء (وقيل العلم) أي العلم الكامل الحسن (ما يؤخذ من أفواه الرجال) أي المهرة الكاملين (لأنهم يحفظون أحسن ما يسمعون ويقولون أحسن ما يحفظون وسمعت الشيخ الأديب الأستاذ زين الإسلام المعروف بالأديب المختار يقول) وهذه الجملة مفعول سمعت.

(قال هلال بن يسار رأيت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقول لأصحابه شيئًا من العلم والحكمة) أي بين لهم شيئًا منهما (فقلت يا رسول الله أعد) أي كرر أمر من الإعادة (لي ما قلت) بصيغة الخطاب (لهم فقال لي هل معك محبرة؟ فقلت ما معي محبرة) أي ليس معي محبرة.

فقال النبي ﷺ: «يَا هِلَالُ، لَا تُفَارِقِ المَحْبَرَةَ؛ فَإِنَّ الخَيْرَ فِيهَا وَفِي أَهْلِهَا إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ».

ووصَّىٰ الصدر الشهيد حسام الدين ابنه شمس الدين أن يحفظ كل يوم يسيرًا من العلم والحكمة، فإنه يسير وعن قريب يكون كثيرًا، واشترىٰ عصام بن يوسف قلمًا بدينارٍ ليكتب ما يسمع في الحال فالعمر قصير، والعلم كثير.

فينبغي ألا يضيع الأوقات والساعات، ويغتنم الليالي والخلوات.

عن يحيىٰ بن معاذ الرازي: الليل طويل فلا تقصره بمنامك، والنهار مضيءٌ فلا تكدره بآثامك، وينبغي أن يغتنم الشيوخَ ويستفيد منهم،

(فقال النبي صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم: «يا هلال لا تفارق المحبرة فإن الخير فيها وفي أهلها إلىٰ يوم القيامة»، ووصىٰ الصدر الشهيد حسام الدين ابنه شمس الدين أن يحفظ كل يوم يسيرًا من العلم والحكمة فإنه) أي ذلك الشيء (يسير) أي قليل (وعن قريب) أي بعد قريب.

(يكون كثيرًا) يعني بكثرة مرور الأيام يكون ما حفظته كل يوم كثيرًا (واشترىٰ عصام بن يوسف قلمًا بدينار) أي بمقابلة دينار (ليكتب ما سمع في الحال) ظرف ليكتب أي ليكتب ما سمعه في حال سماعه.

(فالعمر قصير والعلم كثير فينبغي أن لا يضيع الأوقات والساعات) بتعطيلها وصرفها إلىٰ ما لا ينبغي (ويغتنم الليالي والخلوات) أي المقامات التي يخلو فيها المؤمن عن الموانع والأغيار (عن يحيي بن معاذا الرازي الليل طويل فلا تقصره) من التقصير (بمنامك) يعني بالصرف إلىٰ منامك.

(والنهار مضيء) أي ذو ضياء (فلا تكدره بآثامك) أي لا تجعله ذا كدورة وظلمة بتلوثات آثامك (وينبغي أن يغتنم الشيوخ) لقوله صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم البركة مع أكابركم أي البركة مع صحبة أكابركم وأقدمكم زمانًا لأنهم جربوا الأشياء كثيرًا فيعلمون أن الفائدة في أي فعل وفي أي قول (و) أن (يستفيد منهم) في أي قول وفي أي فعل منهم.

وليس كل ما فات يُدرَك، كما قال أستاذنا شيخ الإسلام في مشيخته: "كم من شيخ كبيرٍ في العلم والفضل أَدْرَكْتُه وما استخرته".

وأقول على هذا الفوت منشئًا هذا البيت:

لَـهَفًا عَـلَىٰ فَـوْتِ التَّلَاقِـي لَهَفَـا   مَـا كُـلُّ مَـا فَـاتَ وَيَفْنَـىٰ يُلْفَـىٰ

قال علي رضي الله تعالىٰ عنه: إذا كنت في أمر فكن فيه، وكفىٰ بالإعراض عن علم الله تعالىٰ خزيًا وخسارًا، واستعذ بالله منه ليلًا ونهارًا.

ولابد لطالب العلم من تحمل المشقة والمذلة في طلب العلم، والتملق

(وليس كل ما فات) من العلوم (يدرك) علىٰ صيغة المبني للمفعول أي لا يقدر أحد أن يصله (كما قال أستاذنا شيخ الإسلام في مشيخته) اسم كتاب لصاحب الهداية (كم من شيخ كبير في العلم والفضل أدركته وما استخرته) أي ما طلبت منه الخيرة.

(وأقول علىٰ هذا الفوت منشئًا هذا البيت: لهفًا علىٰ فوت التلاقي لهفًا) كلمة لهفًا كلمة تحسر يتحسر بها علىٰ شيء فائت وهي منادىٰ وألفها منقلبة عن ياء المتكلم والمعنىٰ يا حسرتا ويا ندامتا علىٰ فوت التلاقي مع أكابر العلماء وأكابر الفضلاء احضري فهذا أوانك ولهفًا الثاني تأكيد للأول.

(ما كل ما فات ويفني يلفىٰ) ما الأولىٰ نافية والثانية موصولة وقوله يلفىٰ علىٰ صيغة المبني للمفعول أي يوجد والمعنىٰ لا يوجد كل ما فات ويفنىٰ ولا يمكن تحصيله فهذا تحسر وتأسف محض والتأسف لا ينفع بعد مضي الحال (قال علي رضي الله تعالىٰ عنه إذا كنت في أمر) أي إذا كنت في تحصيل شيء من الأشياء.

(فكن فيه) يعني داوم في تحصيله ولا تهمله (وكفىٰ بالإعراض) الباء مزيدة كما في قوله تعالىٰ ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [يونس: ٢٩] أي كفىٰ الإعراض (عن علم الله تعالىٰ خزيًا وخسارًا) نصب علىٰ التمييز أي الإعراض عن علم الله تعالىٰ خزي وفظاعة وخسارة في الدنيا والآخرة يجب أن يحترز عنها.

(واستعذ بالله منه) أي من الإعراض عن علم الله تعالىٰ وفواته (ليلًا ونهارًا) نصب علىٰ الظرفية أي في الليل والنهار (ولابد لطالب العلم من تحمل المشقة والمذلة) الكائنتين (في طلب العلم والتملق) يقال تملقه وتملق له تملقًا وتملاقًا تودد إليه وتلطف له.

مذموم إلا في طلب العلم فإنه لابد له من التملق للأستاذ والشركاء وغيرهم للاستفادة منهم، قيل: العلم عز لا ذل فيه، لا يدرك إلا بذلٍّ لا عز فيه، وقال القائل:

أَرَىٰ لَـكَ نَفْـسًا تَـشْتَهِي أَنْ تُعِزَّهَـا فَلَـسْتَ تَنَـالَ العِـزَّ حَتَّـىٰ تُـذِلَّهَا

***

(مذموم) في شيء من الأشياء (إلا في طلب العلم) فالاستثناء مفرغ (فإنه لابد له) أي لطالب العلم (من التملق للأستاذ والشركاء وغيرهم) من العلماء (للاستفادة منهم قيل) في تأييد هذا المعنىٰ (العلم عز) أي عزة (لا ذل) بضم الذال أي لا مذلة ولا حقارة.

(فيه لا يدرك) أي لا يتوصل إليه (إلا بذل لا عز فيه) المراد بهذا الذل تملق الطالبين للأستاذ والشركاء وعرض الاحتياج إليهم في التعلم وهذا ذل يؤدي إلىٰ عز أبدي وفي هذا القول من العكس المستوي ما لا يخفىٰ (وقال القائل) ولعله لم يذكر اسم الشاعر لعدم علمه به، شعرًا (أرىٰ لك نفسًا تشتهي) أي تطلب بلذة (أن تعزها) أي أن تجعلها عزيزة (فلست) بصيغة الخطاب (تنال العز حتىٰ تذلها) أنت بذل التملق..

فصل

في الورع في حال التعلم

روىٰ بعضهم حديثًا في هذا الباب عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ لَمْ يَتَوَرَّعْ فِي تَعَلُّمِهِ ابْتَلَاهُ اللهُ تَعَالَىٰ بِأَحَدِ ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: إِمَّا أَنْ يُمِيتَهُ فِي شَبَابِهِ، أَوْ يُوقِعَهُ فِي الرَّسَاتِيقِ، أَوْ يَبْتَلِيَهُ بِخِدْمَةِ السُّلْطَانِ»، فمهما كان طالب العلم أورع كان علمه أنفع، والتعلم له أيسر، وفوائده أكثر.

ومن الورع أن يحترز عن الشبع وكثرة النوم، وكثرة الكلام فيما لا ينفع، وأن يحترز عن أكل طعام السوق إن أمكن؛ لأن طعام السُّوق أقربُ إلىٰ النجاسة والخباثة، وأبعد عن ذكر الله تعالىٰ، وأقرب إلىٰ الغفلة، ولأن أبصار الفقراء تقع عليه ولا يقدرون علىٰ الشراء منه؛ فيتأذون بذلك

(فصل في الورع)

أي التحرز عن الحرام (في حال التعلم روىٰ بعضهم حديثًا في هذا الباب) أي باب الورع (عن رسول الله ﷺ أنه قال من لم يتورع في تعلمه ابتلاه الله تعالىٰ بأحد ثلاثة أشياء إما أن يميته في شبابه) بأن قدر في العلم الأزلي أن ذلك الرجل إن لم يتورع في حال تعليمه يموت في زمان شبابه وهذا قضاء معلق.

(أو يوقعه) بالنصب معطوف علىٰ أن يميته (في الرساتيق) أي في القرىٰ بين قوم جاهلين (أو يبتليه بخدمة السلطان) فيضيع ما حصل من العلوم (فمهما كان طالب العلم أورع كان علمه أنفع والتعلم له) أي لمثل هذا الطالب (أيسر وفوائده أكثر) ببركة الورع.

(ومن الورع أن يحترز عن الشبع) بكسر الشين وفتح الباء ضد الجوع (وكثرة النوم وكثرة الكلام فيما لا ينفع) أي كثرة البحث فيما لا ينفع من العلوم لأنها لغو محض وتضييع عمر (وأن يحترز عن أكل طعام السوق إن أمكن) الاحتراز عنه (لأن طعام السوق أقرب إلىٰ النجاسة والخباثة) لعدم مبالاة أهله من وقوع النجاسة فيه.

(وأبعد عن ذكر الله تعالىٰ وأقرب إلىٰ الغفلة) لوقوعه في مقام أهل الغفلة (ولأن أبصار الفقراء تقع عليه) أي علىٰ ذلك الطعام (ولا يقدرون علىٰ الشراء منه فيتأذون بذلك) أي بوقوع نظرهم عليه مع عدم القدرة علىٰ اشترائه

فتذهب بركته.

وحُكي أن الإمام الشيخ الجليل محمد بن الفضل كان في حال تعلمه لا يأكل من طعام السوق، وكان أبوه يسكن في الرستاق ويهيئ طعامه ويدخل إليه يوم الجمعة، فرأىٰ في بيت ابنه خبز السوق يومًا فلم يكلمه ساخطًا عليه، فاعتذر ابنه وقال: ما اشتريته أنا ولم أرض به، ولكن أحضره شريكي، فقال له أبوه: لو كنت تحتاط وتتورع لم يجترئ شريكك بذلك، وهكذا كانوا يتورعون، فلذلك وفقوا للعلم والنشر حتىٰ بقي اسمهم إلىٰ يوم القيامة.

ووصىٰ فقيه من زهاد الفقهاء طالب العلم: عليك أن تتحرز عن الغِيبة وعن مجالسة المِكثار،

(فتذهب بركته وحكي أن الإمام الشيخ الجليل محمد بن الفضل كان في حال تعلمه لا يأكل من طعام السوق) وجملة لا يأكل في محل نصب علىٰ أنها خبر كان.

(وكان أبوه يسكن في الرستاق) أي في القرية (ويهيئ طعامه ويدخل إليه يوم الجمعة فرأىٰ) معطوف علىٰ مقدر تقديره فدخل فرأىٰ (في بيت ابنه خبز السوق يومًا فلم يكلمه ساخطًا عليه) أي غاضبًا علىٰ ابنه (فاعتذر ابنه) أي بَيَّن العذر (وقال ما اشتريته أنا ولم أرض به) أي بشراء ذلك الخبز من السوق.

(ولكن أحضره شريكي فقال له أبوه لو كنت تحتاط وتتورع) عن مثله (لم يجترئ) ولم يقدر (شريكك) مرفوع علىٰ أنه فاعل لم يجترئ (بذلك) أي بإحضار طعام السوق عندك (وهكذا) أي بمثل ذلك التورع (كانوا) أي العلماء الماضون (يتورعون فلذلك وفقوا) علىٰ صيغة المبني للمفعول أي جعلوا موفقين.

(للعلم والنشر) أي نشر العلم إلىٰ طالبيه (حتىٰ بقي اسمهم إلىٰ يوم القيامة) بالذكر الجميل والثناء الجزيل (ووصىٰ فقيه من زهاد الفقهاء طالب العلم) منصوب علىٰ أنه مفعول وصىٰ (عليك أن تتحرز عن الغيبة) أي الزم التحرز عن الغيبة (وعن مجالسة المكثار) أي كثير الكلام.

وقال: إن من يكثر الكلام يسرق عمرك، ويضيع أوقاتك، ومن الورع أن يجتنب أهل الفساد والمعاصي والتعطيل؛ فإن المجاورة مؤثرة لا محالة، وأن يجلس مستقبل القبلة، ويكون مستنًّا بسنَّة النبي ﷺ ويغتنم دعوة أهل الخير ويتحرز عن دعوة المظلومين.

حُكي أن رجلين خرجا في طلب العلم للغربة، وكانا شريكين في العلم، فرجعا بعد سنين إلى بلدهما، وقد فقه أحدهما ولم يفقه الآخر، فتأمل فقهاءُ البلدة وسألوا عن حالها وتكرارهما وجلوسهما فأُخبروا أن جلوس الذي تفقه في حال التكرار كان مستقبل القبلة

(وقال) أي ذلك الفقيه إن (من يكثر الكلام) من الإكثار (يسرق) من باب ضرب (عمرك ويضيع أوقاتك) لأنه ليس في إكثاره كثير نفع فباستماعه ينقص العمر ويضيع الأوقات (ومن الورع أن يجتنب) أي طالب العلم (أهل الفساد والمعاصي والتعطيل) أي المفسدين العاصين الباطلين المضيعين أعمارهم فيما لا يهم (فإن المجاورة) أي المقارنة.

(مؤثرة لا محالة) والمحالة مصدر التحول أي لا تحول ولا انقلاب بل التأثير لسبب المجاورة ثابت بلا شك فلابد من التحرز عن أمثالهم تحرزًا عن التخلق بأخلاقهم (وأن يجلس مستقبل القبلة ويكون) بالنصب عطف على أن يجلس.

(مستنًا) أي آخذًا وعاملًا (بسنة النبي ﷺ ويغتنم دعوة أهل الخير) من العلماء والصالحين (ويتحرز عن دعوة المظلومين) لأن دعوتهم مستجابة بالحديث الصحيح (وحكي أن رجلين خرجا في طلب العلم للغربة) لديار الغربة (وكانا شريكين في العلم فرجعا بعد سنين إلى بلدهما وقد فقه أحدهما) أي والحال أنه صار أحدهما فقيهًا.

(ولم يفقه الأخر فتأمل فقهاء البلدة وسألوا عن حالها وتكرارهما وجلوسهما فأخبروا) أي أخبر الرجال الذين يقارنونهم في زمان تحصيلهم (أن جلوس الذي تفقه في حال التكرار كان) أي وجد وثبت (مستقبل القبلة) حال من الضمير المستكن في كان.

والمِصْر الذي حصَّل العلم فيه، والآخر كان مستدبر القبلة ووجهه إلىٰ غير المصر، فاتفق العلماء والفقهاء أن الفقيه فقه ببركة استقبال القبلة؛ إذ هو السنة في الجلوس، إلا عند الضرورة وببركة دعاء المسلمين؛ فإن المصر لا يخلو عن العباد وأهل الخير، فالظاهر أن عابدًا من العباد دعا له في الليل، فينبغي لطالب العلم ألا يتهاون بالآداب والسُنن، فإن من تهاون بالآداب حرم السُّنن، ومن تهاون بالسنن حرم الفرائض، ومن تهاون بالفرائض حرم الآخرة، وبعضهم قال: هذا حديث عن رسول الله ﷺ.

وينبغي أن يكثر الصلاة ويصلي صلاة الخاشعين؛ فإن ذلك عون له علىٰ التحصيل والتعلم.

وأنشدت للشيخ الجليل الزاهد الحاج نجم الدين عمر بن محمدٍ النسفي:

(والمصر الذي حصل العلم فيه والآخر) بالجر أي وجلوس الآخر (كان مستدبر القبلة ووجهه إلىٰ غير المصر) جملة اسمية في موضع الحال (فاتفق العلماء والفقهاء أن الفقيه) المعهود (فقه) من باب حسن أي صار فقيهًا (ببركة استقبال القبلة إذ هو السنة في الجلوس) في جميع الأحوال.

(إلاعند الضرورة) المستدعية للجلوس إلىٰ غير القبلة (وببركة دعاء المسلمين فإن المصر لا يخلو عن العباد) جمع عابد (وأهل الخير فالظاهر أن عابدًا من العباد دعا له في الليل) وتقييد الدعاء بالليل لكونه من مظان الإجابة غالبًا (فينبغي لطالب العلم ألّا يتهاون) أي لا يتكاسل.

(بالآداب والسنن فإن من تهاون بالآداب حرم) بشآمته (السنن) أي من السنن (ومن تهاون بالسنن حرم الفرائض) أي من أداء الفرائض (ومن تهاون بالفرائض حرم الآخرة) أي من ثواب الآخرة الموعود لأهل الفرائض (وبعضهم قال هذا حديث عن رسول الله صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم وينبغي أن يكثر) من الإكثار (الصلاة) أي النوافل والتطوعات.

(ويصلي صلاة الخاشعين فإن ذلك) أي أداء الصلاة علىٰ وجه الخشوع (عون له) أي لطالب العلم (علىٰ التحصيل والتعلم وأنشدت) علىٰ صيغة المبني للمفعول (للشيخ الجليل الزاهد الحاج نجم الدين عمر بن محمد النسفي).

كُـنْ لِلأَوَامِـرِ وَالنَّـوَاهِي حَافِظًـا وَعَـلَىٰ الـصَّلَاةِ مُوَاظِبًـا وَمُحَافِظًـا
وَاطْلُبْ عُلُومَ الشَّرْعِ وَاجْهَدْ وَاسْتَعِنْ بِالطَّيِّبَـاتِ تَـصِرْ فَقِيهًـا حَافِظًـا
وَاسْأَلْ إِلَٰهَكَ حِفْظَ حِفْظِكَ رَاغِبًا فِي فَـضْلِهِ فَـاللهُ خَـيْرٌ حَافِظًـا

وقال:

أَطِيعُـوا وَجِـدُّوا وَلَا تَكْـسِلُوا وَأَنْـتُمْ إِلَىٰ رَبِّكُـمْ تُرْجَعُـونْ
وَلَا تَهْجَعُـوا فَخِيَـارُ الـوَرَىٰ قَلِـيلًا مِـنَ اللَّيْـلِ مَـا يَهْجَعُـونْ

(كن للأوامر والنواهي حافظًا) ومعنىٰ حفظهما الامتثال بالأوامر والاجتناب عن النواهي فكأنه بالامتثال والاجتناب حفظهما عن أن لا يطاع بهما ويجوز أن يكونا بمعنىٰ المأمورات والمنهيات والمعنىٰ ظاهر. (وعلىٰ الصلاة مواظبًا ومحافظًا) أي وكن علىٰ الصلاة مداومًا ومحافظًا وهي وإن كانت داخلة تحت الأوامر إلا أنها أفردت بالذكر تعظيمًا لشأنها وإيذانًا بأنها أم العبادات ومستتبعة لسائر الطاعات والاجتناب عن الفواحش والمنكرات بشهادة القرآن وهو قوله تعالىٰ ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾.

(واطلب علوم الشرع واجهد واستعن) أي اطلب المعاونة (بالطيبات) أي بالأعمال الصالحات والأخلاق المرضية (تصر) مجزوم علىٰ أنه جواب الأمر (فقيهًا حافظًا واسأل إلهك) أي من إلهك (حفظ حفظك) أي اسأل من الله حفظ لحفظ الذي أعطاك إياه بأن يحفظ القوة الحافظة عن الآفات المخلة لها (راغبًا) أي مظهرًا للرغبة.

(في فضله فالله خير حافظًا. وقال) أي عمر النسفي (أطيعوا) أي أطيعوا الله ورسوله (وجدوا) بكسر الجيم أي اجتهدوا (ولا تكسلوا) في الطاعات (وأنتم إلىٰ ربكم ترجعون) أي والحال أنكم إلىٰ حكم ربكم ترجعون فترون ما أعد للمطيعين من الدرجات وللعاصين من الدركات.

(ولا تهجعوا) من الهجوع وهو النوم أي لا تناموا (فخيار الورىٰ) الفاء للتعليل والخيار جمع خيِّر بالتشديد، والورىٰ المخلوق أي أشرف المخلوقين وأبرارهم (قليلًا من الليل ما يهجعون) انتصاب قليلًا علىٰ الظرفية وما تأكيد معنىٰ القلة أي زمانًا قليلًا من الليل ينامون.

وينبغي أن يستصحب دفترًا علىٰ كلِّ حالٍ ليطالعه، وقيل: من لم يكن الدفتر في كمه لم تثبت الحكمة في قلبه، وينبغي أن يكون في الدفتر بياض، ويستصحب المحبرة ليكتب ما سمع، وقد ذكرنا حديث هلال بن يسارٍ.

***

(وينبغي أن يستصحب دفتره) أي يتخذه مصاحبًا (علىٰ كل حال ليطالعه) أي لأن يطالعه (وقيل) في تأييد هذا المعنىٰ (من لم يكن الدفتر في كمه) بضم الكاف وتشديد الميم بالفارسية آستين (لم تثبت الحكمة في قلبه. وينبغي أن يكون في الدفتر بياض) ليكتب فيه ما سمعه من أفواه الرجال.

(ويستصحب المحبرة) أي وعاء المداد (ليكتب ما سمع) من العلماء المهرة (وقد ذكرنا حديث هلال بن يسار) وهو قوله رأيت النبي صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم يقول لأصحابه شيئًا من العلم والحكمة الخ؛ فقد علم منه أن استصحاب المحبرة خير..

فصل

فيما يورث الحفظ وفيما يورث النسيان

أقوىٰ أسباب الحفظ: الجد والمواظبة وتقليل الغذاء وصلاة الليل. وقراءة القرآن من أسباب الحفظ، قيل: ليس شيء أزيد للحفظ من قراءة القرآن نظرًا. وقراءة القرآن نظرًا أفضلُ، لقوله عليه الصلاة والسلام: «أَفْضَلُ أَعْمَالِ أُمَّتِي قِرَاءَةُ الْقُرآنِ نَظَرًا» ورأىٰ شداد بن حكيمٍ بعض إخوانه بعد وفاته في المنام فقال لأخيه: أي شيء وجدتهُ أنفع؟ قال: قراءة القرآن نظرًا، ويقول عند رفع الكتاب: بسم الله وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم العزيز العليم عدد كل حرفٍ كتب

(فصل فيما يورث) أي يعطي

(الحفظ وفيما يورث النسيان)

و(أقوىٰ أسباب الحفظ الجد) أي الاجتهاد (والمواظبة وتقليل الغذاء) بالغين والذال المعجمتين اسم لما يتغذىٰ به (وصلاة الليل) أي الصلاة في الليل تطوعًا كالتهجد (وقراءة القرآن) مبتدأ (من أسباب الحفظ) خبره (قيل ليس شيء أزيد) بالنصب خبر ليس.

(للحفظ من قراءة القرآن نظرًا) أي بالنظر إلىٰ وجه المصحف (وقراءة القرآن نظرًا) لا من ظهر القلب (أفضل لقوله عليه الصلاة والسلام «أفضل أعمال أمتي قراءة القرآن نظرًا» ورأىٰ شداد بن حكيم بعض إخوانه بعد وفاته في المنام فقال) أي شداد بن حكيم.

(لأخيه أي شيء وجدته أنفع) قوله أي شيء مبتدأ ووجدته علىٰ صيغة الخطاب خبره أي أي شيء من الأشياء علمته أنفع لك في الآخرة (قال قراءة القرآن نظرًا، ويقول عند رفع الكتاب) أي الكتاب الذي قرأه وطالعه (بسم الله وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم العزيز العليم عدد كل حرف) منصوب بنزع الخافض أي أقول هذه الكلمات بعدد كل حرف. (كتب) في الماضي.

ويكتب أبد الآبدين ودهر الداهرين ويقول بعد كل مكتوبة: آمنت بالله الواحد الأحد الحق وحده لا شريك له، وكفرت بما سواه، ويكثر الصلاة علىٰ النبي عليه الصلاة والسلام فإنه ذكر للعالمين، قيل:

شَكَوْتُ إِلَىٰ وَكِيعٍ سُوءَ حِفْظِي ... فَأَرْشَدَنِي إِلَىٰ تَرْكِ المَعَاصِي

فَإِنَّ الحِفْظَ فَضْلٌ مِنْ إِلَهِي ... وَفَضْلُ اللهِ لَا يُهْدَىٰ لِعَاصِي

والسواك وشرب العسل وأكل الكندر مع السكر، وأكل إحدىٰ وعشرين زبيبة حمراء كل يوم علىٰ الريق يورث الحفظ

(ويكتب) في الحال والمستقبل (أبد الآبدين ودهر الداهرين) منصوبان علىٰ الظرفية ليكتب (ويقول بعد كل مكتوبة) أي صلاة مفروضة (آمنت بالله الواحد الأحد الحق وحده لا شريك له وكفرت بما سواه ويكثر الصلاة علىٰ النبي عليه الصلاة والسلام فإنه) أي النبي عليه الصلاة والسلام.

(ذكر للعالمين) أي رحمة لهم فببركة الصلاة عليه نرجو نزول الرحمة وشدة الحفظ وزوال النسيان (قيل: شكوت إلىٰ وكيع) اسم رجل (سوء حفظي) أي من سوء حفظي وعدم تيسره (فأرشدني إلىٰ ترك المعاصي) أي عهد التوجه إلىٰ ترك المعاصي فحذف مفعوله بقرينة متعلقه.

(فإن الحفظ فضل من إلهي وفضل الله لا يعطىٰ لعاصي) أي والحال أن فضل الله لا يعطىٰ للعاصي فوجب لمن يطلب الحفظ الذي هو فضل الله لا يعطىٰ للعاصي أن يتحرز عن المعاصي والآثام أو يجتنب عن الذنوب والإجرام (والسواك) أي استعماله (وشرب العسل وأكل الكندر) بالتركي كون لك.

(مع السكر) بالسين المهملة المضمومة والكاف المشددة المفتوحة عربي وبالشين المعجمة المفتوحة والكاف المخففة فارسي (وأكل إحدىٰ وعشرين زبيبة حمراء كل يوم علىٰ الريق) أي علىٰ الجوع (يورث الحفظ) قوله والسواك مبتدأ وما بعده عطف عليه وقوله تورث الحفظ خبره.

ويشفي من كثيرٍ من الأمراض والأسقام. وكل ما يقلل البلغم والرطوبات يزيد في الحفظ، وكل ما يزيد في البلغم يورث النسيان.

وأما ما يورث النسيان فالمعاصي وكثرة الذنوب والهموم والأحزان من أمور الدنيا وكثرة الأشغال والعلائق.

وقد ذكرنا أنه لا ينبغي للعاقل أن يهتم لأمر الدنيا؛ لأنه يضر ولا ينفع، وهموم الدنيا لا تخلو عن الظلمة في القلب، وهموم الآخرة لا تخلو عن النور في القلب، ويظهر أثره في الصلاة.

فهمُّ الدنيا يمنعه عن الخير، وهمُّ الآخرة يحمله عليه، والاشتغال بالصلاة على الخشوع، وتحصيل العلوم ينفي الهم والحزن كما قال الشيخ الإمام نصر بن الحسن المرغيناني في قصيدة له:

(ويشفي من كثير من الأمراض والأسقام، وكل ما يقلل البلغم والرطوبات يزيد في الحفظ) كالأشياء اليابسة المجففة (وكل ما يزيد في البلغم يورث النسيان) كالأشياء الرطبة (وأما ما يورث النسيان فالمعاصي وكثرة الذنوب والهموم والأحزان من أمور الدنيا وكثرة الأشغال والعلائق وقد ذكرنا) أي والحال أنه قد ذكرنا.

(أنه لا ينبغي للعاقل أن يهتم) أي يحزن (لأمر الدنيا لأنه) أي أمر الدنيا (يضر ولا ينفع) يعني قال المصنف في فصل التوكل ولا يهتم العاقل لأمر الدنيا لأن الهم والحزن لا يرد المصيبة ولا ينفع بل يضر بالقلب والعقل والبدن ويخل بأعمال الخير انتهى (وهموم الدنيا لا تخلو عن الظلمة في القلب وهموم الآخرة لا تخلو عن النور في القلب ويظهر أثره) أي أثر ذلك النور.

(في الصلاة) بأن صلاها منشرحًا قلبه وواجدًا لذاتها وحلاوتها (فهم الدنيا) أي إذا كان هم الدنيا لا يخلو عن الظلمة في القلب وهم الآخرة لا يخلو عن النور في القلب (يمنعه) أي العاقل (عن الخير) لأن سبب الظلمة وسبب النور لا يجتمعان لأنهما متنافيان (وهم الآخرة يحمله عليه) أي على الخير ويحرضه عليه لأنهما متناسبان. (والاشتغال بالصلاة على الخشوع وتحصيل العلوم) بالجر عطف على قوله بالصلاة (ينفي الهم والحزن) قوله والاشتغال مبتدأ وقوله ينفي الهم والحزن خبره (كما قال الشيخ الإمام نصر بن الحسن المرغيناني في قصيدة له) أي قصيدة ألفها لنفسه وهي هذه:

اسْـــتَعِنْ نَـــصْرَ بْـــنَ الحَـــسَنْ فِي كُـــلِّ عِلْـــمٍ يُخْتَـــزَنْ
ذَاكَ الَّـــذِي يَنْفِـــي الحَـــزَنْ وَغَـــيْرُهُ لَا يُـــؤْتَمَنْ

الشيخ الإمام الأجل نجم الدين عمر بن محمدٍ النسفي في أم ولدٍ لهُ:

سَـلَامٌ عَـلَىٰ مَـنْ تَيَّمَتْنِـي بِطَرْفِهَـا وَلَـمَعةِ خَـدَّيْهَا وَلَـمَحَةِ طَرْفِهَـا
سَـبَتْنِي وَأَصْـبَتْنِي فَتَـاةٌ مَلِيحَـةٌ تَحَيَّرَتِ الأَوْهَـامُ فِي كُنْـهِ وَصْـفِهَا

(استعن نصر بن الحسن) أي اطلب المعونة يا نصر بن الحسن حذف حرف النداء لأن حذفه مع العلم شائع.

(في كل علم يختزن) أي يحفظ يعني اطلب المعاونة في تحصيل العلوم التي لابد من حفظها من الأستاذ والشركاء (ذاك الذي ينفي الحزن) أي ما يحفظ من العلوم الذي ينفي الحزن والهم لأنه لكمال لذته ينفي سائر الخواطر ويجعل صاحبه مشغولًا به فقط (وغيره) باطل (لا يؤتمن) أي لا يعتبر.

(والشيخ الإمام) بالرفع عطف علىٰ الشيخ نصر بن الحسن (الأجل نجم الدين عمر بن محمد النسفي في أم ولد له) أي في وصف جارية مستولدة له: (سلام) أصله سلمت سلامًا فحذف الفعل وعدل إلىٰ الرفع لقصد الدوام والاستمرار فكأنه قال سلامي أي سلام من قبلي فخصص بالمتكلم.

(علىٰ من تيمتني) بتشديد الياء أي عبدته وذللته وتأنيث الفعل باعتبار المعنىٰ لأن من عبارة عن الجارية المستولدة (بظرفها) أي بظرافتها ولطافتها (ولمعة خديها) أي بلمعان خديها (ولمحة طرفها) اللمحة بمعنىٰ اللمعة والطرف العين (سبتني) أي جعلتني أسيرًا ومفتونًا بعشقها من سبىٰ العدو سبيًا جعله أسيرًا (وأصبتني) أمالتني إليها.

(فتاة مليحة) بالرفع فاعل لقوله سبتني وأصبتني علىٰ سبيل التنازع والفتاة تأنيث فتىٰ أي شابة حسنة (تحيرت الأوهام) والوهم هاهنا بمعنىٰ القوة الواهمة لا بمعنىٰ الوهم الذي هو الطرف المرجوح والجملة صفة لقوله فتاة (في كنه وصفها) أي في حقيقة وصفها يعني تحيرت العقول وعجزت عن إدراك الصفات الكمالية التي اتصفت بها تلك الفتاة المليحة.

فَقُلْتُ ذَرِينِي وَاعْذُرِينِي فَإِنَّنِي ... شُغِفْتُ بِتَحْصِيلِ العُلُومِ وَكَشْفِهَا

وَلِي فِي طِلَابِ الفَضْلِ والعِلْمِ وَالتُّقَى ... غِنًى عَنْ غِنَاءِ الغَانِيَاتِ وَعَزْفِهَا

وأما أسباب نسيان العلم فأكل الكزبرة الرطبة، والتفاح الحامض، والنظرُ إلى المصلوب، وقراءة لوح القبور، والمرور بين قطار الجمال، وإلقاء القمل الحي على الأرض، والحجامة على نقرة القفا،فتجنبوها، كلها تورث النسيان.

***

(فقلت ذريني) أي اتركيني ودعيني في حالي (واعذريني) أي اقبلي عذري في عدم اتباعي لك وعدم اشتغالي بهواك (فإنني) تعليل لما قبله (شغفت) يقال شغف به كفرح علق به (بتحصيل العلوم وكشفها) فمن كان جل همته مصروفًا إلى تحصيل العلوم وكشف غوامضها لا يتيسر له الاشتغال بهوى المحبوبة.

(ولي) أي ثابت لي وهو خبر مقدم (في طلاب الفضل والعلم والتقى) أي في طلب حصولها (غنى) بكسر الغين ضد الفقر وهو مبتدأ مؤخر (عن غناء الغانيات) الغناء بالكسر والمد بمعنى التغني والغانيات الغنيات.

(وأما أسباب نسيان العلم فأكل الكزبرة الرطبة) مبتدأ خبره فيما بعده تورث النسيان والكزبرة بالتركي كشيخ (والتفاح الحامض) أي المز الجامع بين الحلاوة والمرارة (والنظر إلى المصلوب وقراءة لوح القبور) أي قراءة الخط المكتوب على أحجار القبور.

(والمرور بين قطار الجمال) القطار بالكسر معروف (وإلقاء القمل) بفتح القاف وسكون الميم معروف (الحي على الأرض والحجامة على نقرة القفا) أي حفرتها ففي الحديث «الحجامة في حفرة الرأس تورث النسيان» (فتجنبوها كلها) تأكيد (تورث النسيان) وردت الآثار في كلها..

فصل

فيما يجلب الرزق وما يمنع الرزق

وما يزيد في العمر وما ينقص

ثم لابد لطالب العلم من القوت ومعرفة ما يزيد فيه وما يزيد في العمر والصحة ليتفرغ لطلب العلم، وفي كل ذلك صنفوا كُتُبًا فأوردت بعضها هنا علىٰ سبيل الاختصار، قال رسول الله ﷺ: «لَا يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلَّا الدُّعَاءُ، وَلَا يَزِيدُ فِي الْعُمُرِ إِلَّا الْبِرُّ»؛

(فصل: فيما يجلب الرزق)

أي في الأسباب التي تجلب الرزق وتجره وما يمنع الرزق

(وما يزيد في العمر وما ينقص)

(ثم لابد لطالب العلم من القوت) كي يتقوىٰ به في طلب العلم (ومعرفة ما يزيد فيه) أي معرفة شيء يزاد بسببه القوت (وما يزيد في العمر والصحة) أي لابد من معرفتهما (ليتفرغ) علة لقوله لابد لطالب العلم إلخ أي ليكون فارغًا.

(لطلب العلم وفي كل ذلك) المذكور (صنفوا كتبًا) تبين دلائل الكل (فأوردت بعضها) أي بعض الكتب المصنفة أي بعض ما فيها (هنا) أي في هذا المختصر (علىٰ سبيل الاختصار) ولما أراد أن يشرع في بيانه قال علىٰ سبيل الاستئناف.

(قال رسول الله صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم: لا يرد القدر) هو تحديد كل مخلوق بحده الذي يوجد من الحسن والقبح والنفع والضر وما يحويه من زمان ومكان وما يترتب عليه من ثواب وعقاب إلىٰ غير ذلك (إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر) أي الإحسان فإن قيل الآجال والأرزاق مقدرة لا تزيد ولا تنقص بالنصوص الدالة عليها فما وجه الحديث؟ أجيب بأن الأشياء قد تكتب في اللوح المحفوظ متوقفة علىٰ الشروط كما يكتب إن أحسن فلان فعمره سبعون سنة وإلا فخمسون وهو المعني من قوله تعالىٰ: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد: ٣٩].

لكن هذا بالنسبة إلىٰ ما يظهر للملائكة في اللوح المحفوظ لا بالنسبة إلىٰ علم الله تعالىٰ الأزلي إذ لا محو فيه ولا زيادة.

فَإِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ».

ثبت بهذا الحديث أن ارتكاب الذنب سبب حرمان الرزق، خصوصًا الكذب يورث الفقر، وقد ورد فيه حديث خاص، وكذا نوم الصبحة يمنع الرزق، وكثرة النوم تورث الفقر، وفقر العلم أيضًا، قال القائل:

سُرُورُ النَّــاسِ فِي لُــبْسِ اللِّبَــاسِ وَجَمْــعُ العِلْــمِ فِي تَــرْكِ النُّعَــاسِ

وقال:

أَلَــيْسَ مِــنَ الخُــسْرَانِ أَنَّ لَيَالِيَــا تَمُرُّ بِلَا نَفْعٍ وَتُحْسَبُ مِنْ عُمْرِي

وقال آخر:

قُــمِ اللَّيْــلَ يَــا هَــذَا لَعَلَّــكَ تَرْشُــدُ إِلَىٰ كَــمْ تَنَــامُ اللَّيْــلَ وَالعُمْــرُ يَنْفَــدُ

(فإن الرجل) هذا من تتمة الحديث (ليحرم الرزق) أي من الرزق (بالذنب يصيبه) أي بسبب ذنب يرتكبه وجملة يصيبه في محل النصب علىٰ أنه حال أو في محل الجر علىٰ أنه صفة للذنب باعتبار كون اللام للجنس فتصير كالنكرة في العموم كقوله تعالىٰ ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥].

(ثبت بهذا الحديث أن ارتكاب الذنب سبب حرمان الرزق خصوصًا) نصب علىٰ أنه مفعول مطلق لفعل محذوف أي أخص خصوصًا (الكذب) رفع علىٰ أنه مبتدأ (يورث الفقر) خبره (وقد ورد فيه حديث خاص) أي والحال أنه قد ورد حديث خاص دال علىٰ كون الكذب بخصوصه مورثًا للفقر.

(وكذا نوم الصبحة) بضم الصاد وسكون الباء أي النوم وقت الصبح (يمنع الرزق) وقد ورد الحديث في هذا المعنىٰ (وكثرة النوم تورث الفقر) أي الاحتياج من جهة المال (وفقر العلم) أي الجهل (أيضًا) أي كالفقر من جهة المال.

(وقال القائل:

سرور النــاس في لــبس اللبــاس وجمــع العلــم في تــرك النعــاس)

أي النوم والمعنىٰ ظاهر (وقال) أي القائل (أليس) الاستفهام للتقرير (من الخسران أن لياليًا) جمع ليلة (تمر بلا نفع وتحسب) علىٰ صيغة المبني للمفعول من الحساب. (من عمري وقال آخر: قم الليل) أي في الليل للعبادة. (يا هذا) أي أيها الطالب (لعلك ترشد) أي مرجو منك الرشاد (إلىٰ كم) أي إلىٰ أي مدة (تنام الليل والعمر ينفد) أي يمضي

والنوم عريانًا، والبول عريانًا، والأكل جنبًا، ومتكئًا علىٰ جنب، والتهاون بسقاط المائدة، وحرق قشر البصل والثوم، وكنس البيت بالمنديل، وكنس البيت بالليل، وترك القمامة في البيت، والمشي قدام المشايخ، ونداء الأبوين باسمهما، والخلال بكل خشنة، وغسل اليد بالطين والتراب، والجلوس علىٰ العتبة، والاتكاء علىٰ أحد زوجي الباب، والتوضؤ في المبرز، وخياطة الثوب علىٰ بدنه، وتجفيف الوجه بالثوب، وترك بيت العنكبوت في البيت، والتهاون بالصلاة، وإسراع الخروج من المسجد بعد صلاة الفجر، والابتكارُ في الذهاب إلىٰ السوق، والإبطاء في الرجوع منه، وشراء كسيرات الخبز

(والنوم عريانًا والبول عريانًا والأكل جنبًا ومتكئًا علىٰ جنب) بفتح الجيم وسكون النون (والتهاون) أي عدم الاعتبار والتضييع.

(بسقاط) بضم السين ما سقط من الشيء (المائدة) من الخبز ونحوه (وحرق قشر البصل والثوم) هما شجرتان معروفتان (وكنس البيت بالمنديل وكنس البيت بالليل وترك القمامة) أي الكناسة بالتركي سبرندى (في البيت والمشي قدام المشايخ) جمع شيخ وهو الكبير في السن.

(ونداء الأبوين) أي الأب والأم (باسمهما) لأنه ينافي تعظيمهما (والخلال) أي تخليل الأسنان (بكل خشنة وغسل اليد بالطين والتراب والجلوس علىٰ العتبة والاتكاء علىٰ أحد زوجي الباب) أي علىٰ أحد شقي الباب (والتوضؤ في المبرز) بفتح الميم وسكون الباء المستراح (وخياطة الثوب علىٰ بدنه وتجفيف الوجه) أي إزالة بلله.

(بالثوب وترك بيت العنكبوت في البيت والتهاون بالصلاة) بأن لا يصلي أو يصلي ولكن يترك التعديل والخضوع (وإسراع الخروج من المسجد بعد صلاة الفجر والابتكار في الذهاب إلىٰ السوق) أي الذهاب إليه بكرة (والإبطاء في الرجوع منه) أي التأخر في الرجوع من السوق (وشراء كسيرات الخبز) بضم الكاف وفتح السين جمع كسرة وهي القطعة من الخبز.

من الفقراء السُّؤَّال، ودعاء الشر علىٰ الولد، وترك تخمير الأواني، وإطفاء السراج بالنَّفَس، كل ذلك يورث الفقر، عرف ذلك بالآثار، وكذا الكتابة بقلم معقود، والامتشاط بمشطٍ منكسرٍ، وترك الدعاء بالخير للوالدين، والتعمم قاعدًا، والتسرول قائمًا، والبخل والتقتير والإسراف والكسل والتواني، والتهاون في الأمور كذلك يورث الفقر.

قال رسول الله ﷺ:«اسْتَنْزِلُوا الرِّزْقَ بِالصَّدَقَةِ»، والبكور مبارك يزيد في جميع النعم خصوصًا في الرزق، وحسن الخط من مفاتيح الرزق، وبسط الوجه، وطيب الكلام يزيد في الرزق، وعن الحسن بن علي رضي الله تعالىٰ عنهما: "كنس الفناء، وغسل الإناء

(من الفقراء السؤال) بضم السين وتشديد الهمزة جمع سائل (ودعاء الشر) أي الدعاء بالشر (علىٰ الولد وترك تخمير الأواني) أي ترك سترها (وإطفاء السراج بالنفس) بفتحتين (كل ذلك يورث الفقر) قوله والنوم عريانًا مبتدأ وكل ذلك تأكيد ويورث الفقر خبره (عرف ذلك) أي كونه مورثًا للفقر.

(بالآثار) جمع أثر وهو خبر الصحابة (وكذا) أي مثل الأشياء السابقة في إيراث الفقر (الكتابة بقلم معقود) أي منكسر فعقد بشيء (والامتشاط بمشط) بضم الميم (منكسر) ثبت ذلك بالأثر المروي (وترك الدعاء بالخير للوالدين والتعمم) أي لف العمامة (قاعدًا والتسرول) أي لبس السراويل (قائمًا والبخل) أي المنع عن الفقراء (والتقتير) أي الإنفاق علىٰ وجه المضايقة.

(والإسراف) ضد التقتير (والكسل والتواني) أي الضعف (والتهاون في الأمور كل ذلك يورث الفقر) ولما فرغ من بيان الأسباب المورثة للفقر شرع في بيان الأسباب الجالبة للغنىٰ فقال (قال رسول الله صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم استنزلوا الرزق) أي اطلبوا نزول الرزق (بالصدقة والبكور) أي القيام بكرة.

(مبارك يزيد في جميع النعم خصوصًا في الرزق وحسن الخط من مفاتيح الرزق) أي من أسباب انفتاح الرزق لما ورد في الأثر عليكم بحسن الخط فإنه من مفاتيح الرزق (وبسط الوجه) أي بشاشته وانبساطه (وطيب الكلام) يعني حسن الأداء بلين ورفق (يزيد في الرزق وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما كنس الفناء) أي قدام الدار (وغسل الإناء) الذي يستعمل للطعام ونحوه.

مجلبة للغنى"، وأقوى الأسباب الجالبة المحصلة للرزق: إقامة الصلاة بالتعظيم والخشوع وتعديل الأركان وسائر واجباتها وسننها وآدابها، وصلاة الضحى في ذلك معروفة مشهورة، وقراءة سورة الواقعة خصوصًا بالليل وقت النوم، وقراءة سورة الملك والمزمل، والليل إذا يغشى، وألم نشرح لك، وحضور المسجد قبل الأذان، والمداومة على الطهارة، وأداء سنة الفجر والوتر في البيت،

(مجلبة للغنى) بكسر الغين وبالقصر ضد الفقر والمجلبة بفتح الميم وسكون الجيم مصدر بمعنى الجلب أي سبب جلب الغنى (وأقوى الأسباب الجالبة المحصلة للرزق إقامة الصلاة بالتعظيم والخشوع) أي الاحتياج والتواضع والخضوع واللين والانقياد ولذلك يقال الخشوع بالجوارح والخضوع بالقلب.

(وتعديل الأركان) أي تسكين الجوارح في الركوع والسجود والقومة بينهما والقعدة بين السجدتين (وسائر واجباتها) أي في واجباتها وإنما أفرد التعديل بالذكر مع كونه واجبًا أيضًا اهتمامًا لشأنه لوقوع إهمال الخلق إياه كثيرًا وقال إبراهيم النخعي: إذا رأيتم رجلًا يخفف الركوع والسجود فارحموا عياله من ضيق المعيشة ذكره في الروضة.

(وسننها وآدابها وصلاة الضحى في ذلك) أي في جلب الغنى (معروفة مشهورة) روي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه قال إن الله تعالى يقول يا ابن آدم اكفني أول النهار بأربع أكفك بهن أمر يومك يعني أقضي حوائجك وأدفع عنك ما تكره بعد صلاتك إلى آخر النهار كذا في شرح الشرعة والمراد بالأربع صلاة الضحى والأحاديث في فضيلتها كثيرة.

(وقراءة سورة الواقعة خصوصًا بالليل وقت النوم وقراءة سورة الملك والمزمل والليل إذا يغشى وألم نشرح لك وحضور المسجد قبل الأذان والمداومة على الطهارة) أي الوضوء (وأداء سنة الفجر والوتر في البيت) لقوله ﷺ «من صلى سنة الفجر في بيته يوسع له رزقه ويقل المنازعة بينه وبين أهله ويختم له بالإيمان» كذا في شرح التحفة.

وألا يتكلم بكلام الدنيا بعد الوتر، ولا يكثر مجالسة النساء إلا عند الحاجة، وألا يتكلم بكلام لغوٍ غير مفيد لدينه ودنياه، وقيل: من اشتغل بما لا يعنيه يفوته ما يعنيه.

قال بزرجمهر: إذا رأيت الرجل يكثر الكلام فاستيقن بجنونه، قال علي رضي الله تعالىٰ عنه: إذا تمَّ العقلُ نقص الكلام، قال المصنف رحمه الله تعالىٰ: اتفق لي في هذا المعنىٰ:

إِذَا تَـمَّ عَقْـلُ المَـرْءِ قَـلَّ كَلَامُـهُ ... وَأَيْقِنْ بِحُمْقِ المَرْءِ إِنْ كَـانَ مُكْثِـرًا

وقال آخر:

النُّطْـقُ زَيْـنٌ وَالسُّكُوتُ سَـلَامَةٌ ... فَـإِذَا نَطَقْـتَ فَـلَا تَكُـنْ مِكْثَـارًا

مَـا إِنْ نَـدِمْتُ عَـلَىٰ سُـكُوتِي مَـرَّةً ... وَلَقَـدْ نَـدِمْتُ عَـلَىٰ الكَـلَامِ مِـرَارًا

(وألّا يتكلم بكلام الدنيا بعد الوتر ولا يكثر مجالسة النساء إلا عند الحاجة) أي لمجالستهن (وألا يتكلم بكلام لغو غير مفيد لدينه ودنياه وقيل من اشتغل بما لا يعنيه) أي بما لا يهمه (يفوته) أي ذلك الرجل (ما يعنيه) أي يهمه (قال بزرجمهر) وزير أنوشروان وكان عاقلًا كاملًا (إذا رأيت الرجل يكثر الكلام فاستيقن بجنونه) أي احكم يقينًا بجنونه لأن العاقل لا يضيع أنفاسه فيما لا يعني.

(قال علي رضي الله تعالىٰ عنه إذا تم العقل نقص الكلام) أي صار ذا نقصان علىٰ أن نقص لازم من النقصان (قال المصنف رحمه الله تعالىٰ اتفق لي في هذا المعنىٰ: إذا تم عقل المرء قل كلامه وأيقن) أي من الإيقان أي احكم بيقين.

(بحمق المرء إن كان مكثرا) لكلامه ويتكلم بما لا يهمه كيف لا وهو تضييع عمر نفيس في تكلم كلام خسيس (وقال آخر النطق زين) أي زينة المرء لأنه به يمتاز عن الدواب وبه يعرف الجاهل ممتازًا عن ذوي الألباب (والسكوت سلامة) لأن في النطق خطر فإذا سكت يكون سالمًا عن ذلك.

(فإذا نطقت) بتاء الخطاب (فلا تكن مكثارًا) مبالغة كاثر لأنه يورث الكلال في العقل (ما إن ندمت علىٰ سكوت مرة) ما نافية وندمت علىٰ صيغة الخطاب أي ما ندمت علىٰ كونك ساكتًا مرة (ولقد ندمت علىٰ الكلام مرارًا) أي لقد ندمت علىٰ تكلم الكلام مرارًا كثيرة تقول لم قلت هذا الكلام القبيح فثبت أن السلامة في السكوت.

ومما يزيد في الرزق أن يقول كل يوم بعد انشقاق الفجر إلى وقت الصلاة: سبحان الله العظيم، سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه، مائة مرة، وأن يقول: "لا إله إلا الله الملك الحق المبين"، كل يوم صباحًا ومساءً مائة مرةٍ، وأن يقول بعد الفجر كل يوم: الحمد لله وسبحان الله، ولا إله إلا الله، ثلاثًا وثلاثين مرة، وبعد صلاة المغرب أيضًا.

ويستغفر الله تعالى سبعين مرة بعد صلاة الفجر، ويكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام، ويقول يوم الجمعة سبعين مرة: اللهم أغنني بحلالك عن حرامك

(ومما يزيد في الرزق) أي من الأسباب المزيدة للرزق (أن يقول كل يوم بعد انشقاق الفجر إلى وقت الصلاة سبحان الله العظيم سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه مائة مرة) لأن في هذا الكلام تسبيحًا وتحميدًا واستغفارًا وتوبة وقد وعد المستغفرين في نص القرآن بزيادة الأموال قال الله تعالى ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ [نوح: ١٠-١٢] الآية.

(وأن يقول لا إله إلا الله الملك الحق المبين كل يوم صباحًا ومساء) أي في وقت الصبح والمساء (مائة مرة وأن يقول بعد الفجر كل يوم الحمد لله وسبحان الله ولا إله إلا الله ثلاثًا وثلاثين مرة وبعد صلاة المغرب أيضًا) أي ثلاثًا وثلاثين مرة (ويستغفر) بالنصب عطف على أن يقول.

(الله تعالى سبعين مرة بعد صلاة الفجر ويكثر) بالنصب من الإكثار (من قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) أي لا انصراف عن معصية الله تعالى ولا قوة على طاعة الله تعالى إلا بتوفيق الله تعالى (والصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام) بالجر عطف على قول لا حول أي يكثر من الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام (ويقول يوم الجمعة سبعين مرة اللهم أغنني) بفتح الهمزة من الإغناء (بحلالك عن حرامك) أي عن الأشياء التي جعلتها محرمة.

واكفني بفضلك عمن سواك، ويقول هذا الثناء كل يومٍ وليلة: أنت الله العزيز الحكيم ، أنت الله الملك القدوس، أنت الله الحليم الكريم، أنت الله خالق الخير والشر، أنت الله خالق الجنة والنار، عالم الغيب والشهادة، عالم السر وأخفى، أنت الله الكبير

(واكفني) من الكفاية (بفضلك عمن سواك) أي كن لي كافيًا بفضلك عن الاحتياج إلى من سواك (ويقول هذا الثناء كل يوم وليلة أنت الله العزيز) أي الغالب من قولهم عز إذا غلب فيرجع إلى القدرة وقيل عديم المثل فيكون من أسماء التنزيه (الحكيم) أي ذو الحكمة وهي العلم بالأشياء على ما هي عليه والإتيان بالأعمال على ما ينبغي وقيل بمعنى المحكم من الإحكام وهو إتقان التقدير وإحسان التدبير فعلى الأول مركب من وصفين أحدهما من صفات الذات والآخر من صفات الأفعال وعلى الثاني يرجع إلى التقدير وقيل مبالغة الحاكم الذي لا مرد لقضائه ولا معقب لحكمه فيرجع إلى القوي.

(أنت الله الملك) معناه ذو الملك والمراد به القدرة على الإيجاد من قولهم فلان يملك الإيقاع بكذا إذا تمكن فيكون مرجعه إلى صفة القدرة (القدوس) أي المنزه عن المعايب وقيل هو الذي لا تدركه الأوهام والأبصار وهو صفة سلبية على الوجهين (أنت الله الحليم) أي الذي لا يحمله غيظ على استعجال العقوبة والمسارعة إلى الانتقام ولكنه جعل لكل شيء مقدار فهو منته إليه وهو راجع إلى التنزيه.

(الكريم) أي المتفضل الذي يعطي من غير مسألة ولا وسيلة، وقيل المتجاوز الذي لا يستقصي في العقاب وقيل المقدس عن النقائص والعيوب من قولهم كرائم الأموال لنفائسها ومنه يسمى شجر العنب كرمًا لأنه أطيب الثمرة قريب للتناول وسهل القطاف عار عن الشوك بخلاف النخل (أنت الله خالق الخير والشر أنت الله خالق الجنة والنار عالم الغيب) أي الغائب عن الحس.

(والشهادة) أي الحاضر له (عالم السر وأخفى) من السر وهو ضمير النفس (أنت الله الكبير) وهو نقيض الصغير وهما يستعملان للأجسام باعتبار مقاديرها ثم لعالي المرتبة قال الله تعالى حكاية عن فرعون ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه: ٧١] والله تعالى كبير بالمعنى الثاني أما باعتبار أنه أكمل الموجودات وأشرفها من حيث إنه واجب

المتعال، أنت الله خالق كل شيء وإليه يعود كل شيء، أنت الله ديان يوم الدين، لم تزل ولا تزال، أنت الله لا إله إلا أنت، أنت الله الأحد الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، أنت الله لا إله إلا أنت الرحمن الرحيم،

الوجود بالذات من جميع الجهات غنيّ على الإطلاق وما سواه حادث بالذات نازل في حضيض الحاجة والافتقار وإما باعتبار أنه كبير عن مشاهدة الحواس وإدراك العقول وعلى الوجهين فهو من أسماء التنزيه.

(المتعال) هو البالغ في العلا والمرتفع عن النقائص (أنت الله خالق كل شيء وإليه) أي إلى حكمه (يعود كل شيء أنت الله ديان يوم الدين) ومعنى الديان القهار والقاضي والمجازي الذي لا يضيع عملًا بل يجزي بالخير والشر (لم تزل) في الماضي (ولا تزال) في المستقبل.

(أنت الله لا إله إلا أنت أنت الله الأحد) في الصفات لا يشاركه أحد فيها (الصمد) أي السيد سمي بذلك لأنه يصمد إليه في الحوائج ويقصد إليه في الرغبات وقيل هو العلي في الدرجة.

(لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد أنت الله لا إله إلا أنت الرحمن الرحيم) اسمان بنيا للمبالغة من رحم كالغضبان من غضب والعليم من علم والرحمة في اللغة رقة القلب، وانعطاف يقتضي التفضل والإحسان على من رق له وأسماء الله تعالى وصفاته إنما تؤخذ بالغايات التي هي أفعال دون المبادي التي هي انفعالات فرحمة الله تعالى إما إرادة الإنعام عليهم فيكون من صفات الذات أو نفس الإنعام فيعود إلى صفات الأفعال والرحمن أبلغ من الرحيم لزيادة بنائه وذلك يؤخذ تارة باعتبار الكمية ويقال يا رحمن الدنيا لأنه يعم المؤمن والكافر ورحيم الآخرة لأنه يخص المؤمن وأخرى باعتبار الكيفية ويقال يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيم الدنيا لأن النعمة الأخروية بأسرها تامة عظيمة والنعمة الدنيوية جليل وحقير وتام وغير تام وكان معنى الرحمن المنعم الحقيقي تام الرحمة عميم الإحسان ولذلك لا يطلق على غيره تعالى وغيره إنما يفعل ما يفعل لغرض نفسه فيرجو بإنعامه إما من الله ثوابًا وإما من الخلق عوضًا أو ثناء.

أنت الله لا إله إلا أنت الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، لا إله إلا أنت الله الخالق البارئ المصور

(أنت الله لا إله إلا أنت الملك القدوس السلام) أي ذو السلامة من النقائص مطلقًا في ذاته وصفاته وأفعاله وقيل معناه معطي السلامة في المبدأ والمعاد فعلى الأول صفة سلبية وعلى الثاني صفة فعلية (المؤمن) أي المصدق بنفسه فيما أخبر به كالوحدانية مثلًا في قوله تعالى ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨]ومصدق لرسله بالقول نحو محمد رسول الله فهو صفة كلامية أو بخلق المعجزة لهم الدالة على صدق الرسل فصفة فعلية وقيل المؤمن لعباده من الفزع الأكبر إما بقوله: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ﴾ [فصلت: ٣٠] أو بخلق الأمن والطمأنينة فيهم فيرجع إلى صفة فعلية أو كلامية.

(المهيمن) أي الرقيب البالغ في المراقبة والحفظ من قولهم هيمن الطير إذا نشر جناحيه على فرخه صيانة له فلا أجعله مرادفًا له فإذن في المهيمن من المبالغة باعتبار الاشتقاق والزنة ما ليس في الرقيب كالرحمن والرحيم (العزيز الجبار) بناء مبالغة من الجبر وهو في الأصل إصلاح الشيء بضرب من القهر ومنه جبر العظم ونحوه قول علي رضي الله تعالى عنه يا جابر كل كسير ومسهل كل عسير وقيل من الجبر بمعنى الإكراه يقال جبره السلطان على كذا وأجبره إذا أكرهه فمرجعه على المعنيين صفة فعلية.

(المتكبر) أي العظيم ذو الكبرياء وهو المتعالي عن صفة الخلق (لا إله إلا أنت الله الخالق البارئ) ومعنى البارئ خالق الخلق بريئًا من التفاوت ومميزًا بعضها عن بعض بالهيئات والصور المختلفة (المصور) قال الغزالي قد يظن أن هذه الثلاثة مرادفة وأنها راجعة إلى الخلق والاختراع والأولى أن يقال ما خرج من العدم إلى الوجود أولًا إلى التقدير وثانيًا إلى الإيجاد على وفق ذلك التقدير وثالثًا إلى التصوير والتزيين كالبناء يقدره المهندس والرسام ثم يبنيه الباني ثم يزينه النقاش فالله سبحانه وتعالى خالق من حيث إنه مقدر وبارئ من حيث إنه موجد ومصور من حيث إنه يرتب صور المخترعات أحسن ترتيب ويزينها أكمل تزيين.

له الأسماء الحسنى، يسبح له ما في السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم.

ومما يزيد في العمر: البر، وترك الأذى، وتوقير الشيوخ، وصلة الرحم، وأن يقول حين يصبح ويمسي كل يوم ثلاث مرات: سبحان الله ملء الميزان، ومنتهى العلم، ومبلغ الرضا وزنة العرش، ولا إله إلا الله ملء الميزان، ومنتهى العلم، ومبلغ الرضا، وزنة العرش.

(له الأسماء الحسنى) لأنها دالة على محاسن المعاني (يسبح له ما في السموات والأرض) ينزهه عن النقائص (وهو العزيز الحكيم) الجامع للكمالات بأسرها فإنها راجعة إلى الكمال في القدرة والعلم. ولما فرغ من بيان الأسباب المزيدة للرزق شرع في بيان الأسباب المزيدة للعمر فقال.

(ومما يزيد في العمر البر) أي الإحسان (وترك الأذى) أي أذى المسلمين (وتوقير الشيوخ) أي تعظيمهم وقد وعد في الأخبار لمن عظم الشيوخ الكبار السن أن يعطي له مثل عمرهم (وصلة الرحم) روي عن النبي عليه السلام «**إن العبد ليصل رحمه وقد بقي من عمره ثلاثة أيام فيزيد الله أجله ثلاثين سنة وإن الرجل ليقطع رحمه وقد بقي من أجله ثلاثون سنة فيرد أجله إلى ثلاثة أيام**».

(وأن يقول حين يصبح) أي يدخل في الصباح (ويمسي) أي حين يدخل في المساء (كل يوم ثلاث مرات سبحان الله ملء الميزان) الملء بكسر الميم وسكون اللام اسم لما يأخذه الإناء إذا امتلأ والمراد بالميزان ميزان الأعمال يوم القيامة الذي عرف كبره في كتب الأحاديث.

(ومنتهى العلم) والمراد منه التكثير على وجه المبالغة بمعنى أن علم الله تعالى لا يتناهى فكذلك التسبيح يعني أسبح الله تعالى بتسبيح غير محصور ومعدود كعلمه تعالى (ومبلغ الرضا) أي مبلغًا ومقدارًا يصيبه رضا الله تعالى (وزنة العرش) الزنة مصدر بمعنى الوزن كالعدة بمعنى الوعد والمراد من هذه الألفاظ كثرة التسبيح لا التحديد والتعيين.

والله أكبر ملء الميزان ومنتهى العلم ومبلغ الرضا وزنة العرش.

وأن يحترز عن قطع الأشجار الرطبة إلا عند الضرورة، وإسباغ الوضوء والصلاة بالتعظيم، والقران بين الحج والعمرة وحفظ الصحة، ولابد أن يتعلم شيئًا من الطب، ويتبرك بالآثار الواردة في الطب الذي جمعه الشيخ الإمام أبو العباس المستغفري في كتابه المسمى بـ "طب النبي ﷺ" يجده من يطلبه.

والحمد لله على التمام، والصلاة والسلام على سيدنا محمدٍ أفضل الرسل الكرام آمين.

***

(ولا إله إلا الله ملء الميزان ومنتهى العلم ومبلغ الرضا وزنة العرش والله أكبر ملء الميزان ومنتهى العلم ومبلغ الرضا وزنة العرش) والمراد أيضًا كثرة التهليل والتكبير (وأن يحترز عن قطع الأشجار الرطبة) لأنه ما من شيء إلا وهو يسبح والقطع منع لها عن تسبيحها لأنها تسبح إذا قامت على ساقها بشهادة الأثر المروي.

(إلا عند الضرورة) المقتضية مثل الطبخ ونحوه (وإسباغ الوضوء) أي إتمام سننه وآدابه (والصلاة بالتعظيم والقران) بكسر القاف مصدر بمعنى المقارنة (بين الحج والعمرة وحفظ الصحة) بأن لا يلقي نفسه في المهالك ويقي نفسه من الحر والبرد؛ وبالجملة ملازمة أسباب الصحة مزيدة للعمر.

(ولابد أن يتعلم شيئًا من الطب) أي من علم الطب المبين فيه أحوال بدن الإنسان من حيث الصحة والسقم (ويتبرك بالآثار الواردة في الطب الذي جمعه الشيخ الإمام أبو العباس المستغفري في كتابه المسمى بطب النبي عليه الصلاة والسلام) وكأن قائلًا قال فأين نجد ذلك الكتاب فأجابه بقوله.

(يجده من يطلبه) وهو كتاب مشهور ومعتبر بين العلماء فلابد للطالب من أن يجده ويتبرك بالآثار والأخبار المذكورة فيه (والحمد لله على التمام والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفضل الرسل الكرام آمين)..